

محمود درويش

# في حضرة الغياب

نص



محمود درويش

## في حضرة الغياب

نص

يقولون: لا تبعه، وهم يذنبونني  
وأين مكان اليفد إلا مكانيا؟  
مالك بن الربيع

سَطْرًا سَطْرًا أَتَرَكَ أَمَامِي بِكَفَايَةٍ لَمْ أُوْتَهَا إِلَّا فِي الْمَطَالَعِ /  
وَكَمَا أَوْصَيْتَنِي، أَقْبْتُ الْآنَ بِاسْمِكَ كَيْ أَشْكُرَ مُشَيْعِيكَ  
إِلَى هَذَا السَّفَرِ الْأَخِيرِ، وَأَدْعُوهُمْ إِلَى اخْتِصَارِ الْوَدَاعِ،  
وَالانْصِرَافِ إِلَى عِشَاءٍ احْتِفَالِي يَلِيقُ بِذِكْرِكَ /  
فَلْتَأَذُنْ لِي بِأَنْ أَرَاكَ، وَقَدْ خَرَجْتُ مِنِّي وَخَرَجْتُ مِنْكَ،  
سَالِمًا كَالْقُتْرِ الْمُصْفًى عَلَى حَجَرٍ بِخُضْرٍ أَوْ بِصَفَرٍ فِي  
غِيَابِكَ. وَلْتَأَذُنْ لِي بِأَنْ أَلْعَنَكَ، وَاسْمَكَ، كَمَا يَلُمُّ السَّابِلَةُ  
مَا نَسَبِي قَاطِفُو الزَيْتُونِ مِنْ حَيَاتٍ عَيَّأَهَا الْحَصَى. وَلِنُذْهِبْ  
مَعًا أَنَا وَأَنْتَ فِي مَسَارَيْنِ:

أنت، إلى حياوة ثانية، وَعَدْتُكَ بها اللغة، في قاريء قد  
ينجو من سقوط نَيْرِكَ على الأرض.

وأنا، إلى موعد أرجائه أكثر من مرة، مع موت وَعَدْتُهُ  
بكأس ليبيد أحمر في إحدى القصائد. فليس على الشاعر  
من يخرج إن كذب. وهو لا يكذب إلا في الحب، لأن  
أقاليم القلب مفتوحة للغزو القاتن.

أما الموت، فلا شيء يُهَيِّئُهُ كالغدر: اختصاصيه المُجَرَّب.  
فلأذهب إلى موعدتي، فور عشوري على قبر لا ينازعني  
عليه أحد من غير أسلافي، بشاهدق من رخام لا يعينني إن  
سقط عنها حرف من حروف اسمي، كما سقط حرف  
الياء من اسم جدّي سهواً.

ولأذهبن، بلا عُكَّاز وقافية، على طريق سلكتاه، على غير  
هدى، بلا رغبة في الوصول، من قرط ما قرأنا من كُتُب  
أُنذَرْنَا بِحُلُولِ الذرى مما بعدها، فأثرنا الوقوف على سفوح  
لا تخلو من لهفة الشرقب لما تُوحى الثنائيات من امتنانٍ  
غير مُغَلَّنٍ بين الضدِّ والضمِّ. لو عرفتُك لامتلكُك، ولو  
عرفتني لامتلكتي، فلا أكون ولا تكون.

هكذا سَمِينَا، بتواطؤٍ إيقاعي، ما كان بيتنا من هاوية

سفحاً. ونسجتنا إلى كتب قرأتها عجزتنا عن الوصول إلى  
 ذروة تطلُّ على غمٍّ ضروريٍّ لاختبار الوجود يا صاحبي!  
 يا وأنا ي القائم على بزوغ البياض من أبدية، وعلى  
 تلويح الأبدية بياض لا لون بعده. فبأي معنى من معانيك  
 ألقم الشكل اللاتق بعقب أبيض؟ وبأي شكل أحسي  
 معنك من الهباء ... ما دامت رحلتنا أقصر من خطبة  
 الكاهن في كنيسة مهجورة، في يوم أحد، لم يسلم فيه  
 أحد من غضب الآلهة؟

لكنك مُسجى أمامي، أعني في كلامي الخالي من عثور  
 الاستعارات على مصاحرها، وعلى رابط عفي بين أرض  
 متدنية، وسماه وثنية. من هناك إلى هناك يرحل الغيم  
 برفقة قمر لم يحرمنا اقتضاح سره الصخري من تذكر  
 حُب سابق. ولم يمنعنا جفاف القلب من مداواة أوجاع  
 المفاصل بذكرى التمدد على العشب، تماماً كما أنت  
 مسجى أمامي في كلامي الذي لن يخلله غد شخصي  
 كف عن الخداع، لا لأنه تأذب وتهذب، بل لأنه يحتضر  
 الآن ويصير إلى خبر، لا غدو له ولا صديق... خبر عن  
 مسافرين اثنين، أنت وأنا، لم يفترقا في مرآة أو طريق ...  
 لم يفترقا إلا لساعات بتأكُّدان خلالهما من سطوة الأنثى  
 على الذكر /

حيث يرى المرء نفسه في حرائق البرق، كما هي، معافاةً  
مُضغَّاةً من شوائب التشبيه بما ليس موتاً يُخيبي... وحياةً  
تُحيا على حصة العاشق من سخاء المودة بين المخلوق  
والمخالق. فلا جنة معلنة بالحواس وبالحُسن سوى العاشقة،  
ولا جحيم إلا بحية العاشق.

فلتأذن لي، إذًا، ونحن نفرق على هذا اليرزخ، بأن أفسخ  
العقد المبرم بين عيبٍ وعيب، فلا تعلم من انصهر منا ومن  
انكسر، أنا أم أنت أم الموت، لأننا لم نعترف من قبل،  
لنتصبر، بأن العدو أذكى منا وأدهى، فلا شيء يغوي  
الهزيمة أكثر من مفاجأة هذا الاعتراف، يا صاحبي  
الشُرف بالأوصاف النقيضة، الشُرف في البحث عن  
عيب لا يُد منه لتدريج النفس على التسامح، ولتحظى  
بنعمة التأمل في ماء يضحك في العمازات، ويطيّر  
فراشات فراشات تخلق الشعر من كل شيء حي. فالحقّة،  
كالسدى، قاهرة المعدن، وعلاء الزمن، هي التي تدرب  
الوحش على النخ في النهايات /

فلا تصالح شيئاً إلا لهذا السبب إليهم، ولا تندم على  
حرب أنصجتك كما يُنضج آب أكواز الزمان على

منحدرات الجبال المشهوبة، فلا جهنم أخرى في انتظارك.  
ما كان لك صبار عليك /

وعليك أن تدافع عن حروف اسمك المفككة، كما تدافع  
القطعة عن جرائها. وعليك ما عليك: أن تدافع عن حق  
النافذة في النظر إلى العابرين، فلا تسخر من نفسك إن  
كنت عاجزاً عن البرهان، الهواء هو الهواء ولا يحتاج إلى  
وثيقة دم. ولا تندم .. لا تندم على ما فاتك، حين  
غفوت، من تدوين لأسماء الغزاة في كتاب الرمل، الفصل  
بروي والمطر يمحوا، وحين تصحوا لا تندم لأنك كنت  
تحلم، ولم تسأل أحداً: هل أنت من القراصنة؟ لكن أحداً  
ما سيسألك: هل أنت من القراصنة؟ فكيف تزود البديهة  
بالوثائق والبنادق، وفيها ما يكفيها من محاربت خشبية،  
وجرار من فخار، وفيها زيت بضيء وإن لم تمسه نار،  
وقرآن، وجدائل من فلفل وبامية، وحصان لا يحارب /

فلا تعاتب أسلافك على ما أورثوك من براعة النظر إلى  
التلال بلا استعداد لتلقي الوحي من سماء خفيفة، بل  
لعدّ النجوم على أصابع يديك العشر. فأتى لك أن تثبت  
البديهة بالبرهان، والبرهان متعطش لتهب البديهة تعطش  
القرصان إلى سفينة ضالة؟ البديهة عزلاء كظلي مطعون



بالأمان، مثلك مثلك، في هذا الحقل المقترح لعلماء الآثار  
 المسلحين الذين لم يكفوا عن استجوابك: من أنت؟  
 فتحمست أعضائك كلها، وقلت: أنا أنا. قالوا: ما  
 البرهان؟ فقلت: أنا البرهان. فقالوا: هذا لا يكفي، نحتاج  
 إلى نقصان. فقلت: أنا الكمال والنقصان. فقالوا: قل إنك  
 حجرٌ كي تنهي أعمال التفتيش، فقلت لهم: ليت الفتى  
 حجرٌ، فلم يفهموك /

وأخرجوك من الحقل. أما ظلك، فلم يتبعك ولم  
 يخذلك، فقد تسمر هناك وتحجر، ثم احضر كنيقة  
 ششم حضراء في النهار، زرقاء في الليل. ثم نما وسما  
 كصفافة في النهار حضراء، وفي الليل زرقاء /

مهما تأيت ستدنو / ومهما قُلت ستحمي / فلا تظن أنك  
 ميتٌ هناك / وأنت حيٌ هنا / فلا شيء يثبت هذا وذلك  
 إلا المجاز / المجاز الذي درّب الكائنات على لعبة الكلمات /  
 المجاز الذي يجعل الظل جغرافيا / والمجاز الذي سيلتك  
 واستك / فاصعد وقومتك / أعلى وأبعد مما بعد تراث  
 الأساطير لي ولك / اكتب بنفسك تاريخ قلبك / منذ  
 إصابة آدم بالحب / حتى قيامة شعبك / واكتب بنفسك  
 تاريخ جنسك / منذ اقتبست من البحر إيقاعه ونظام

التفؤس / حتى رجوعك حيآ إلى / فأنت مسجى أمامى /  
كقافية غير كافية لاندفاع كلامى إليك / أنا المرثى  
والرائى / فكنى كى أكونك / فم لأحملك / اقرب منى  
لأعرفك / ابتعد عنى لأعرفك!

ولما معاً على قارعة الرمالحت، لا توأمي ولا جاريس، بل  
واحد، هي انسي أو انسي هي واحد. لم يصدّق أحد من  
الجالسين في ظلّ شجرة التوت أنك ستحياء من فرط ما  
سُرقت بحبيب أملك واحتشمت. محيلاً كنت كحاطرة  
عابرة. محيلاً كتبتة شعير خالية من الحب كنت. لكن  
شهر آدار، القادر على مسك دم المكان شقائق بحان،  
مهارة الإنقاذ من موت مبكر لا تنساه إلا لتذكر أن الحياة  
لم تأت إليك على طبق من ذهب أو فضة، هاشئة باشئة،  
بل جاءتك على استحياء كجارية مدفوعة الأجر، صعبة  
وعذبة، وشديدة المعانعة. لكن التدريب الطويل على  
الألفة هو ما يجعل الحياة ممكنة.

وعكسة هي مرادفة الثعلب، أولى حيواناتك الماكرة،  
بعبورها الخصر، أنثوية الإعراء . تحافها ولا تقوى على  
الابتعاد، كجاذبية تدفعك إلى الرعدة في القمر من عل إلى  
محزف أو هالوة.

هكذا سكتك مد البداية فنة الثعلب والهاوية،

وجرّك فصول القطط، دون حذرهما، إلى ملامسة الخطر.  
فعاقلت أهلك المشغولين بقرم أوراق التبغ بسكاكين حادة،  
وتداولت إحداها ووصفت على شعرتها ركبتيك اليسرى،  
وضغطت لتعرف إن كانت السكين تعمل بلحمك الطري  
ما تعمله بأوراق التبغ، فعاجأك المسائل الأحمر ولم تتوجع  
إلا حين برعوا السكين من ركبتيك، وصتدو جرحك  
وعاقبك على طيش النخلة.

هكذا رأيت الدم الأول . . ذمك الذي علحك أن الندبة  
داكرة لا تكف عن العمل، كلما نظرت إليها شملت  
رائحة التبغ الذهبي، وعباءة جلدك المعلقة كخيمة في  
الريح وكندما لمست الندبة استمعت إلى بكاء الدم  
وكبرمت الحياء ... على أيدي العرائس وققدسهن،  
وأشخت بوجهك عن رقصة الديك الأخيرة، وعن  
خروف العيد، ولم تشارك أترابك لعبة تعذيب العصافير /

وحلمت، وما رلت تحلم حتى الهرير الأخير من الحلم،  
 بأن عصفوراً حطَّ على ينيك، قصصته وشمتته وفاحت  
 من ريشه رائحة الصيغ، ولشمتته، ثم كلمته قائلاً يا  
 أخي! غُذِّ إلى قصائلك، فعاد إليك في حلم الليلة التالية.

كأنك طفلي، كأني أبوك. ولم يدللك أبوك لقلاً برميك  
 إخوانك في حُبِّ الحكاية. فاحملي كما حملتك، لأرى  
 من بعد إلى ذلك الأرق المساب من كل بعيد تُصفيه  
 المسافة من كل شائبة، هي الحكاية حقل أوسع مما كان.

ولم أكن طفلاً آنذاك، ولكسي هو الآن في وداع يمتع  
 بفعل الماضي القاص باب المذائح على مصراعين افكان  
 المفقود، والزمان المفقود ليس المكاد هو الفج يد يصير إلى  
 صورة، هي الذاكرة ما يكمي من أدوات التجحيل لتثبيت  
 المكاد في مكانه، وما يكمي لترتيب الأشجار على دهبه  
 الرغبة، لا لأنه فيما وإن لم يكن فيه، بل لأن الأمل هو  
 قوة الصيغ المستعصية على المقايضة. وفي الأمل ما  
 يكمي من العافية لقطع المسافة الطويلة من اللامكان  
 الواسع إلى المكاد الصيق. أما الزمان الذي لم يشعر به إلا  
 متأخرين، فهو الفج الذي يترئص بما على حافة المكان

الذي جثا إليه متأخراً، عاجزاً عن الرقص على اليرزخ  
العاصل بين البداية والنهاية!

فاخيمتني كما ختمتْكَ العرشاتُ إلى مدرج الضوء،  
خفياً مثلها، كلما انبلح الصبح من نفوب بابك الخشبي،  
واسهرت ألوان طائفة لم تعرف أسماءها، كحواطر  
سماوية مبشرة، على حقول حالية من الجيش. هناك،  
حسبت أن الأرض تظهر وترقص. فوقفت على صحرة  
وفتحت ذراعيك للريح وفمرت إلى أعلى لتظهر، فأحاطت  
بك العرشات كشقيقات، وأعانتك على الطيران... ولم  
تعلج. لكنّها أدخلتكَ إلى مدار اللازورد، ودربتك على  
فقه العزلة. فابتعدت عن البيت، وخطوت إلى الشجر الذي  
لم تعرف من أسمائه إلا ما خفّ لمظله، كالرهبان  
والخروب والسدبان والبلوط. ولم تعرف من أسماء  
النباتات إلا الحبيزة والهندباء ذات الزهر البيلكي كيون  
عيني جدتك.

هناك سكتك فتنة الطيران والعزلة. وهناك، حاولت أن  
تولد من حلمك، دون أن تترك العارق بين الحلم  
والخيال. في مساء ما، تسلّلت من خلوتك الشجرية إلى  
هواية الدار الجنوبية ودعوت الحصان إلى الخروج معك،

فأطاعك وخرج. وعلى محاذاة صحرة عالية أوقعت  
الحصان الغاش وقعرت على ظهر أملس دون سرج قaddock،  
كما يقود الهواء سحابة، إلى منحدر يؤدي إلى حقل لا  
نهاية له. فمهرثة فاستجاب، وصار الهواء ريحاً فانتشيت.  
إنني أطير. كل شيء يطير. الشجر، الأرض، الجهات،  
السيارات، الريح. ولا عاية من هذا الطيران سوى لذة  
الطيران إلى المجهول، حتى هبط الدبل على المجهول وعلى  
المعلوم، وصار المكان أعشى. لم تعلم أنك قد سقطت.  
لكن الحصان العائد بلا فارس الصغير هو من دُلَّ أهدك  
على موقع طيشك. ضعدوا المرح في حاجبك الأيمن، ثم  
عالبوك.

أما الدبة على حاجبك الأيمن، الدبة التي لا تراها غير  
الأنثى الخبيرة باستجواب قلب الذكر فهي ذاكرة فراشة  
تقلد نسرًا.

وعلى سبابة يدك اليسرى ندبة أخرى. جلست وبنأ  
صغيرة كيمايتين على حجيرين في كرم ريتون سأقابسلك  
هذه لتعاحة، قلت لها، وأنت تنظر في عينيها وتمزق  
السكين الصدئة على إصبعك بدلاً من التعاache. جاءت  
من الدم وهربت وأنت تساديهما. خدي التعاache كلها!

وداويت جرحك بمحبة من تراب مخلوط بالعشب  
اليابس.

لم أسألك وأنت تكبر أمامي عما يجعلك تخرج نفسك  
كلما عبت في حضور، لكي تشير الانتباه، أم لتعود لألم  
على راحة البصل؟

سئوك الشقي، وأنت أظفقت على طائر الدوري لقب  
الشقي. هو شبيهك في التوتر، وتقيصك في الحذر. لكنك  
أحببت مهارته العالية في مراوغة الصياد، فلا عش له إلا  
الحيلة وأحببت فيه حيرة اللون بين الحسنة والصورة، وحدة  
الظهور على ارتعاع مسحضر وعال برمرة واحدة،  
ومحاذئة المشي بين الناس، بلا وجل، كمخبر قادر على  
الإفلات من قبضة اليد الخائبة.

وسئوك الشقي لأنك تبكي من فرح أو من حزن، دون  
أن تؤول أحد صوت الريح في قصب سرعاد ما يتحول  
دايات ماذا يقول الناي؟ هل يحمل في ما يحمل هذين  
الريح، ألم ينقل فرح الزعانة بولادة حمل جديد، أم حزنهم  
من قطع دنانير يحاصر قطع الأغنام؟ يستلجك الناي  
إلى البعيد، وتبكي كمن يستيق العاجنة. لا غيم أسود في  
الأفق /



فلماذا تبكي والموت بعيد؟ / وحديقة بيتك عالية /  
والشرفة عالية / والصمصافة عالية / فلماذا تبكي / وطريق  
الثبابة واضحة / واللبلب يُصيرك من خصلة شعرك حتى  
أخضر قديمك؟ / وأنت تطيح الباي وترقص تركص /  
لا دنت يعوي في الليل على قصر أصغر كاللحمونة / لا  
شبح يطلع من جدد الرينة كني بمشال أبك / لماذا  
تبكي؟ / هل خوفك من عرج يبكك؟ سألتك / لكبي  
أدرك أن هواء الليل على جبل مشقوب بالناي مبرشح دمعاً  
سليبه مدى / سنصور عدلاً نايماً سحريراً / قلت / فلم  
تسمعي / لم يكبر جرحك بعد / فلا تتركني في هذا  
الوادي أبحث عنك مدى / لم تسمعي /

والآن وأنت مُستجنى فوق الكلمات وحيداً، ملعوماً  
بالزبي، والأخضر والأرق، أدرك ما لم أدرك.

إن المستقبل مُتدند،

هو ماضيك القادم!

للحروف البيضاء على الدوح الأسود مهابةً مجرر ريفي.  
وكما يُضَبُّون الماء، على مهل، في خزة لا تتلى، نشرت  
الشكل الملقص وصوته معاً، بتعديب الحجرة وتلويعها  
بالإشارة، وبإحصاء الخلق لما تراه العينان.

حين يُجمَعُ حرفٌ إلى حرف، أي غَبَّتْ إلى غبث، يُشِيرُ  
عامضُ الشكل عن وصوح صوت ما، ويفتح هذا الوضوح  
البطيء مجرى لمعى له صورة، فتصير ثلاثة أحرف بدلاً أو  
داراً. وهكذا تبي حروفٌ حاملة، لا قيمة لها إذا اترقت،  
بيتاً إذا اجتمعت.

يا لها من لعبة! يا له من سحر. يولد العالم تدريجياً من

كلمات. هكذا تصير المدرسة ملعباً للخيال . فتركض إليها بفرح الموعود بهدية اكتشاف، لا لتحمض الدرس بحسب، بل لتحمض على المهارة في تسمية الأشياء. كل بعيد يقترب. وكل مُغلقٍ يفتح. إذا لم تحطىء في كتابة كلمة نهر، فسجري النهر في دفترك. السماء أيضاً تصبح جزءاً من مفتحاتك الشخصية إذا لم تحطىء في الإملاء.

كلُّ ما لا تعلمه يدك الصغيرات، تُلك يدك الصغيرات إذا أنقُشت التدوير بلا أخطاء. من يكتب شيئاً يملكه. سنشُم رائحة الورد من حرف الناء المربوطة كبرعم يفتح. وستدوق طعم الثوب من جهتين من الناء المُثْصِلة ومن الناء المفتوحة كراحة اليد /

الحروف أمامك، مخدّتها من حياضها والعب بها كالعناج في هديان الكون. الحروف قلقة، حائرة إلى صورة، والصورة عطشى إلى معنى. الحروف أواسي فحار فارعة هاملأها بسهر العرو الأول. والحروف مدّة أخرس في حصي مشائر على فارعة المعنى. لحك حرفاً بحرف تولد بحمة، قُرب حرفاً من حرف تسمع صوت المطر، ضُغ حرفاً على حرف تجد اسمك مرسوماً كشطَم قليل الدرج /

كلُّ الحروف جاهزة لاستقبال الشكل / الكائن، الباحث

عن يد ماهرة تحلق الحاجة إلى الانسجام. ما عليك إلا  
أن تستفي يدك كائنات تعرفها من قبل، وكائنات تعرفك  
على نفسها فيما بعد. /

وتستهلوك حرف النون المستقل كصحن من نحاس يتسع  
لاستضافة قمر كامل النجوم. يرون ويحزن إلى أي امتلاء  
ولا يمتلئ به ولا يكف عن الرنين مهما ابتعد ومهما  
ابتعدت. سيكبر هك وتكبر فيه، ويُخبيك، ويُفصيك عن  
نفسك كحُب مدحاح، ويُذيقك من الآخرين... نون  
السورة والجماعة والمُشتى وقلب «الأما» وجناحا «حسن»  
الطليقان. ستأخذك سورة الرحمن إلى الإيمان المصحوب  
بالطرب، فتحب الله وتشقى من قلق السؤال الأول «من  
خلق الله؟» /

وتحب الشعر وبأخفك الإيقاع المهور بحرف النون إلى  
ليل أبهى. كلمات تنقل مرساناً من حب الحرب دفاعاً  
عن بحر الماء، إلى حرب الحب دفاعاً عن أميرة محطوفة في  
بلاد الحب. لا تستقيم الحكاية إلا بثلاثية الغروسية والشعر  
والحب. مقادير يصارعها السيف والتفصيلة معاً، فلا تكون  
علية إلا بهما مجتمعين. لم تنصر قبيلة بلا شاعر، ولم  
يتنصر شاعر إلا مهزوماً في الحب

حين يعضّ الساهرون من ديوان جلدك، ويحملك جلدك  
إلى النوم، تكون الحكاية قد هيأتك لتعلم وفق خيالها  
المعتوج، ستمتع حروب عشرة تارة، والمسهل تارة.  
وستدخل عرفاً لا تعرفها في تاسل الحكاية من الحكاية في  
ليالي شهر راد التي لا تبلى الهامة، فتصير جزءاً من حكاية  
في عالم سحري التكوين لا يشبه شيئاً مما حولك.

### هكذا سكنتك فتنة الإيقاع والحكاية

فابتعدت، وحيرك الخط المقطوع بين الواقع والخيال، بين  
حرب ثروى وحرب تُرى.

في مساء ما، رأيت مساء الحبي دهباً آيات بحماسة،  
يحمل على رؤوس أكياساً ملأى بحجارة يكسوها  
على سطوح المنازل كالذخيرة، والرجال مهمكون بتدبير  
رؤوس العصي بالمسامير ما هذا؟ سألت، فقيل لك: غداً،  
صباحاً تندلع الحرب بين الحملتين الكبيرتين في القرية لنا  
حلعاء من الأنساء ولهم حلعاء . . لكنا ستصير لم  
تسأل عن سبب الحرب، ولعلهُ الصجر أو خلاف على  
ظل شجرة، ولعلهُ اختراع حكاية. لكن المعركة التي  
امتدت من الصباح إلى المساء لم تسمر عن قتلى أو مصر،  
بل فتحت أبواب السجون للمحاربين، وأغلقت باب

الحكايات في دار جدك. وكان عليك أن تبكي من فقر الليل. وكان عليك أن تكمل الحكايات وحدك وعلى قدر حلمك، بلا رُواة ومعاون!

أما الحروف البيضاء على الدوح الأسود، فقد نشفت ككس صدى، لأن كاهوساً ما رافقت إلى المدرسة. هل مات أبي؟. وحين يسألك المعلم، ما معنى هذه الجملة: «تظهر السيارة حتى تعبر» تهميه وأنت شارد الدهش، يعني إذا رأيت سيارة على الشارع، فلا تمش على الشارع حتى تمر السيارة. يصححك المعلم ما علاقة تعبر - تمر؟ فتقول: أليست كلمة «تعبر» هي «تمر» لأن للسيارة زُمرة. يقول لك موبخاً تعبر معها تمر. حتى الآن، وبعد ستين عاماً من هذه الوعكة اللغوية، ما رلت تسمع صوت الرمور كلما قرأت أو سمعت كلمة «تعبر». وتصححك في سرك من قدرة الأخطاء الأولى على خفر في الصخر. وتساءل: متى أشعني من تعريف الكلبي بالجرني؟ فالربهة ليست هي الطائر، والشجرة ليست هي العاة، والعتة ليست هي البيت.

لكن الكلمات هي الكائنات. ستسحرك اللعبة حتى تصبح جرباً منها وستقصي العمر في الدفاع عن حق

اللعبة في استعراضك إلى المشاهدة، وفي استعراضها إلى العكاشة تقرأ ولا تفهم ما تقرأ، فتقرأ أكثر مستمتعاً بقدرة الكلمات على الاختلاف عن العاديّ الكلمات هي الأمواج تتعلم السباحة من إعواء موجة تدفّق بالتردد. وللكلمات إيقاع البحر وبدء العاصف: فلنأتين إلى التي بحسناً عما لا نعرف - سداك الأرق. وأنفذك الحفظ وخزّن الشاطئ من انقطاع أكيد مع صوت الكلمات. نكر قسديل البحر ما زال يحكّك دون أن تنوب عن حبّ البحر، ودون أن تعلم أن البحر هو مصدر الإيقاع الأول. فكيف يسبح البحر في أحرف ثلاثة، ثابها طافح بالملح؟ كيف تتسع الحروف لكل هذه الكلمات؟ وكيف تتسع الكلمات لاحتضان العالم؟

تكبر على مهل وببطء. وتودّ لو تقعر أسرع أسرع في السباق إلى غد تروّض فيه الكلمات، وتقول شعراً حماسياً مدفوعاً بقوة الحب وبواجب الدفاع عن القبيلة، فيفتح لك السريّ الحفني بافتتاح الكلمات على الوعي، فلا تكون لعبة كما ظلت، بل تحديق الظاهر إلى الباطن، وتجليّ الباطن في الظاهر، فتكونها وتكونك، فلا تعرف التمييز بين القائل والقول مستقي البحر سماء مقلوبة،

وتستفي البحر جزة لحفظ الصوت من عبث الريح، وتستفي  
السماء بحراً معلقاً على اليوم.

ثمة شيء يترى بالغامض، لا يُشَمُّ ولا يلمس ولا يتدوق  
ولا يبصر، هو ما يجعل الطفولة حاشية سادسة، فسئوك  
الحالم من فرط ما رُكِبَتْ للكلمات من أجسجة لا يراها  
الكبار، ونخرشت بالغامض، واعتربت /

فانهض من هذا الأيهر

عُذْ طلعاً ثانية / عُلْسي الشعر / وعُلْسي إيقاع البحر /  
وأرجع للكلمات براءتها الأولى / لذني من حبة قمع، لا  
من جرح، لذني / وأُعْدي، لأعْطيك فوق العشب، إلى  
ما قبل لمسي / هل تسمعي قبل المضي / كان الشجر  
المالي يمشي معاً شجراً لا معي / والقمر العاري  
يحبو معاً / قمرأ / لا طَبَقاً قَصَباً للمعي / عُذْ طلعاً  
ثانية / عُلْسي الشعر / وعُلْسي إيقاع البحر / وعُذْ يدي /  
كفي بغير هذا البرج ما بين الليل وبين العجر معاً / ومعاً  
نتعلم أولى الكلمات / وبني عشا سرياً للدوري: / أُنْجِنا  
الثالث / عُذْ طلعاً لأرى وجهي في مرآتك / هل أنت  
أنا / وأنا أنت؟ / معُلْسي الشعر لكي أرتيك الآن الآن  
الآن / كما تُرْشِني



نُتْ نُهِّلْ عَلَى هَذَا الْوَادِي، فَاهْبِطْ أَسْرَعَ مِنْ تَحْجَلِي  
مَدْعُور. الْهَوَاءُ سَاكِنٌ لَا يَحْرُكُ رِيْشَةً، وَلَا ذَيْلَ لِرَحِيْمَتِكَ  
هَذَا أَوْصَحَ مِنْ عَرَابٍ يَرِاقُ الْمَارْحَبِينَ إِلَى حُدُودِ اللَّيْلِ /

نُتْ بَيْلٌ، وَلَا إِقَامَةٌ لِمَا وَلَكَ، مِنْذُ الْآنَ، تَحْتِ أَشْجَارِ  
الرَّيْثُونِ، وَلَا دُوبٍ خَارِجٍ مَا يُمْشِرُهُ الظِّلُّ الدَّاكِرُ لِعَرَبَاتِ  
نَسْمَعِهَا وَلَا يَرَاهَا. اللَّيْلُ مَكْتَبَرَاتُ صَوْتِ. اللَّيْلُ طَبْلُ  
الْصَدَى. لَكَ لَيْلٌ صَارِخٌ فَاهِدًا، وَاسْمُكَ الصَّغِيرُ وَأَسْمَاؤُهَا  
كُلُّهَا نَتَهِيًا لِلْإِقْلَاعِ إِلَى مَهْثَرِهَا الْعَشْوَائِيَّةِ فِي مَوْصِي  
التَّكْوِينِ.

يُوقُظُونَكَ مِنْ زَمَمِكَ لِلْخَاصِّ، وَيَقُولُونَ لَكَ: اكْبِرِ الْآنَ مَعَنَا

في زمن القافلة، واركنص معنا لثلا يعترسك الدئب. فلا  
وقت لنا لنودّع أي شيء ساخن. فانرك بقية ممالك مائماً  
على نافذة مفتوحة، ليلحق بك حزن يصحو عند الفجر  
الأزرق. الحلم هو الذي يجد الحالمين، وما على الحالم إلا  
أن يذكر /

فأخرج معنا إلى هذا الليل الخالي من الرحمة. ستعرف  
فيما بعد كيف تنضد الكواكب في خزانة الذاكرة،  
وكيف تعوض الحسارة بقوة العبارة وتنصرف. أمّا الآن، فلا  
تنظر إلى المجمة لثلا تحططك وتصيب. وتعلق بثوب أمك  
... الدليل الوحيد على أن الأرض تركض حافية القدمين،  
ولا تبك كأخيك الصغير، المولود منذ أيام، لثلا يرشد  
البكاء الجود إلى جهتها المرمية في الهواء كيفما اتفق.

لس يقوى أحدٌ على إخفاء الوجع عنك، فهو مرئي،  
لملموس، مسموع، كاتكسار المكالمات المدوي. وما أنت ذا  
معنا ترى الوجع الذي يهيبا كل شيء، دفعة واحدة،  
ويسلّ ما كصل السكين جالساً قبالتنا شامتاً، على  
الصنعة لأخرى لسهر كان حاجراً وصار نعلطة حجرية.  
الوجع يسامرنا، عن بعد، ويعوي كإماتات الوحوش تعالوا  
إلني تعالوا! فلا تذهب ولا يرجع.

ثم مكس بعد في حاجة للأساطير، لكن ما حدث فيها يحدث الآن فينا . في هذا اليوم المهروس بجسارير الدهابة. فمن يروي قصتنا نحن السائرين على هذا الليل، مطرودين من المكاد ومن الأسطورة التي لم تجد منا أحداً يشهد على أن الجريمة لم تقع. فإذا لم مكس نحن نحن، فليسوا هم هم. لكن الخصوصية هي الخصوصية، درعة السارق.

فلا تنظر إلي نفسك في ما يكتب عليك. ولا تبحث عن الكعكة فيك لتثبت أنك موجود. بل اقبض على واقطع هذا واسمك هذا، وتعلم كيف تكتب برهانك. فأنت أنت، لا شبحك، هو المطرود في هذا الليل.

لك ليل وللحسنة آباء هم أبائك، وللمسازل ثبات هم أجدادك، وللمجرح المبكر منك صرخة هي أنت، لا ولد آخر أصابه سهواً سهم إلهة ماجنة هكذا ستكتب عن تاريخ لا عن أسطورة، وليس من شأن يساء الملح أن يشهدن عليك أو لك . . . ولك أن تستعين بالآلهة الأساطير، كذاكرة متخفية، لتحمي الشعر من علة الجيش على الإيقاع وعلى تاريخ القمح، ولتحمي الرمن من هيمة الرمن . . . فلك في تعدد الآلهة نصيب ما من

عدل ممكس، ولك من هذا الماصي نصيب من طعمونة لا  
تريد أن تشيخ سريعاً بلا حكمة. لكن ما هو راسخ هو أن  
اسمك هو اسم الأرض /

ولم تكن للأرض من أنوثة أجمل من الكعائيات السابحات  
على السهل والتل ممؤهات بشقائق السحمان، والمريمية،  
وعصا اراعي، والرجس المحي بجلال الأمير على الماء /

الكعائيات الكعائيات المزهوة بصبوات الربيع،  
الشهوديات، الطامعات من سهيل الصلعات، ومن تأهب  
السايات للإمساك بأول الأرض الهارب من الماصرة إلى  
جداول ترعى بين أقدامهن /

بلاسم هنا رئة الفضة، وطعة الريح الطائش في غصود  
الكعائيات المدورات لتعليق الأرض، بحروف الأبعدية  
السامية، على قرون الأماثل /

وليس بلاسم هنا قربان المحي للميت ولا غمرال الميت  
للمحي فالكعائيات، وقد أغواهن البايوع، أخرجن الأرض  
من وحشتها في الكهوف إلى بيوت على شاكلة الإبداع  
المعجزي /

وكما أمام البحر شهود التفاحات الأولى في الرحيل من

مردوس إلى آخر، وجوداً لا سلاح لنا غير أعواد الدرة  
وقوة القمح العظمى /

ورأيت كيف يخضر الظل ويحمر من شمس أربعا،  
ويبيض من رقة سلاما الحار، سلاما الزراعي السائر خفيفاً  
خفيفاً بين نارنا الأولى وما انقطع من رسائل الشهية

من ربح إلى ربح /

سلاما المشور كالأرق الأيدي على أرض تغطي جرحها  
الأنثوي بورق الثين وبصوف الحراف الساعة بلا أجراس  
إلى ماء النايح /

سلاما المكشوف كرائحة الفواكه الناصجة الفاصحة في  
ليالي الأهراس /

فلتغسل، أيتها الكتانيات، بالماء والصوء والحرق، ليمتليء  
المكان بأبونة تهزول خلف قطيع الماعز الملعل أبصاً  
بشررت كائداء الشاة، ويشهد على سلام الفرح. ويلهب  
الأفجاد المنيقة بحليب العنب اللرج /

فاسبح، أيتها الكتانيات، اسبح في نور الساخن،  
تطمح قصيدة شاعر ما يثرث الماء الصافي قبل العرو .

شاعر لم يولد على قارعة هذا الرحيل، بل وُلد منذ الأزل،  
 منذ التقى آدم بحواء لترجية الأبدية. شاعر لم يولد، هو  
 وأسلامه إلا على هذه الأرض المستنة بكر، الستنة  
 بشوك الورود الذي زرعت.

لم تكن بحاجة للأساطير إلا لتفسير العلاقة بين القمر  
 والدورة الشهرية، وبين الشمس ودورة العصور، واضعاً  
 السحر على الكلام في ليالي الشتاء الطويلة، وتدريب  
 الوحوش على طاعة الغم.

فاحتفظ ليل الألم هذا عن ظهر قلب فقد تكون الروي  
 والرواية والمروي، فلا تنسى هذا الطريق الصيق المشرع  
 الذي يحملك وتحمله إلى المجهول العريد الذي سهرمك،  
 وأهلك، بالشبهات.

وتسأل. ما معنى كلمة «لاحي»؟

سيقولون: هو من «ثَلَعَ من أرض الوطن».

وتسأل. ما معنى كلمة «وطن»؟

سيقولون: هو البيت، وشجرة التوت، وقرن الدجاج، وقفير  
 الحبل، ورائحة الخبز، والسماء الأولى.

وتسأل: هل تُشع كلمة واحدة من ثلاثة أحرف لكل

### هذه اختويات . . وتصيق بها؟

وبسرعة تكبر على وقع الكلمات الكبيرة، وعلى الحفاة بين  
عالم بهار خلعتك، وعالم لم يتشكل بعد أمامك ... عالم  
مرمى كحجر طائش في لعبة أقدار. تسأل نفسك: من  
أنا؟ ولا تعرف كيف تعرف نفسك ما رلت صغيراً على  
سؤال يحير لعلاسة. لكن سؤال الهوية الثقيل قد أقعد  
العرشة من الطيران.

تستحي ركناً قصياً على صحرة مهجورة على البحر  
الليثاني. تبكي كأمر صغير أزلوه عن عرش الطفولة، قبل  
أن يُنْقَضَ بَقَّةُ الرُّشْدِ التدريجى، ودرس الجغرافيا الصرورى  
معرفة المسافة بين «هنا» و«هناك»:

يا بحر، يا بحر . . ولا تملح في تركيب النداء الكافى.  
لكن حرف الحاء يدرّب الحلق على بُعْثَةِ الملح يا بحر، يا  
بحراً وتبكي، يذوب قليل من الملح الصاعد إلى لعينى،  
وتصحح وُجْهَةَ النداء: يا بحر، يا بحر . . خدني إلى هناك.

يدنو طائر أبيض منك، طائر بحري، سحري يهبط هرق  
إليك، ويرفق يطوي عليك جناحيه ويلبث كأنك واحد  
من فراخ سلالته، ويقنع ويطير على ارتداد مسحصر، فلا

تدري إن كنت أنت الطائر أم صمعة من صماته. تحلقان  
على طول الساحل المتعرج للتلويح بين الأوراق والأخضر.  
وبلا ألم تهبطان على باحة البيت الواقع كالألم على  
الثلة. النافذة ما زالت مفتوحة. يمرد الطائر الأبيض  
جسديه برفق على سريرك، تنام خميماً كما على غيمة.  
نكر أصواتاً عالية توقظك فجأة- ماذا تفعل هنا أيها الولد  
الأحمق؟ كيف تنام على هذه الصحرة المهجورة على  
شاطئ البحر، في مثل هذا الليل؟ ألا بيت لك ولا أهل؟  
فانشبت إلى أنك تحلم /

لَكَ حُلْمٌ يسبق الشعر، بهي

وبداة يسبق الإيقاع، بحري

كأن الليل هذا

خلوة الخالق بالخلق.

كن سيد أوصافك منذ الآن،

يا بهي لك حُلْمٌ

فاتبع الحُلْمُ بما أوتيت من ليل! وكن إحدى صمات  
الحلم

واحلُمُ تجدد العردوس في موصعه!



ظلام، ظلام، ظلام. مجيء اللون من التأويل، وحيال يهب  
الأعشى ما هاته من مروق الإملاء، ومساواة ترجح كفة  
الخطأ لو خلا الليل ما تعاد صيتادو الأشباح إلى ثكناتهم  
خائرين ولو خلا الليل منهم لعدنا إلى بيوتنا سالمين

الأشجار سوداء عمياء بلا أسماء وبلا ظلال. وفي كل  
حجر سر ما كأن الموت الذي لم تره من قبل يصب  
مخاضه بدهاء تام المسرية مماذا تعمل في هد الخلاء  
الكامل لو نقصت هذه القافلة الصغيرة؟ ومن أية جهة  
تجئ، ومادا تعمل بجأتك؟ إلى أين تأخذها وأنت لا  
تعرف أي طريق؟

لم تفكر بموتك أنت، فما زلت صغيراً على هذه التجربة،  
إد لم تدرك بعد أن بمقدور الصغار أيضاً أن يموتوا لكن  
كيف تمضي وحيماً إلى حياة لا تعرفها ولا تعرف  
مكائنها؟ فأهلكك احتمالاً تهيل عليك، بلا رافة، سماء  
ثقيلة الوطأة. ويروي لك، بلا رحمة، نهاية قصة عن  
ضباع أهدى في ليل وحشي مُطيق على بعثتين، وطريقي  
صحري، وسمسار حمبي يفود خمسة عائلتين إلى  
خطاهم المعاكسة.

وستروي إلى لا أحد واضح الملامح، لم يكن لها من  
غدو، وقتيد، إلا الصوء والصوت. ولم يكن لها، ليلتها،  
من حليف سوى الحظ، يهرك صوت الخوف الخفيض، لا  
تسعل أبها الولد، ففي السعال دليل الموت إلى مقصده.  
ولا تشمل هود الثقاب، أبها الأب، فإن في بصيص نارك  
العفيرة إعواء لئار البنادق

وخيل لك أن الليل هذا هو خباء الموت الواسع، وأنت  
تمشي أو ترحف أو تقعر كالجندي في برية السحاب الخالية  
من ابدرة. وخيل لك أن الصوء القادم من بحمة شاردة، أو  
من سيارة بعيدة، هو أحد الأدلاء السريين لصاحب هذه  
البرية. وعليك إذا لاح الصوء من بعيد أن تتحد هيئة

شجرة واطلة أو صحرة صغيرة، وأد نحبس أنعاسك لثلاً  
يسمك الضوء الواشي

وستروي لي عندما أتنق التدوين، أو ستروي لآ أحد كيف  
عثرت هناك، في ذلك الليل، على قرون استشعار جاهرة  
لالتقاط الرسائل البعيدة، وكيف تلزمت على الإقامة في  
انغمسة، وكيف اكتويت بحمرة الشائيات، وجاهدت في  
مكابدة الصد للصد، وتجنبت تعريف العكس بالعكس،  
فليس كل عكس لما هو خطأ صواباً دائماً وليس الوطن  
هو النهار، دائماً، وليس المعنى هو الليل..

ظلام يوتخذ العناصر في كهف الوجود الخالي من الضور.  
يطمح المجهول المحمول على عواء الدثاب وعلى هسيس  
العشب الدامي. وتمشي خطوة على خواطر سوداء، وعلى  
صحرة ليل خطوة. وأنت تسأل في سرك عما يحمل  
الحنمة صلبة، وعما يجعل الحياة صعبة وتمح إلى مطر في  
الجوب، إلى مطر يذيب هذا الخير الكوي الهائل، ونقول  
لو هطل المطر علينا في هذا الليل لداب الطلام ورأينا  
خطانا والطريق، وقادتنا رائحة المطر إلى الشجر الذي  
شب في الغياب ودخلت أعصانه العالية إلى العرف.

نكر همساً ملخاً بأمرك بأن تسيطح على الأرض هو

الصبيح - يقولون لك وهم يشيرون إلى صوء سيارة من بعيد، ولا يأتون لك بأن تسأل. هل يقود الصبيح سيارة؟ ثم تعرف المحاز بعد، فلم تعرف أن الصبيح هو «حرس الحدود» إذ ظنوا أن الصبيح لم هو في سنك أرحم. فهو لا يحمل بندقية ولا يعرف الحاججة. ويكفيك، لتتجو مسه، أن نحسي خوفك في جيبك، وتنظهر بالمشية اللامبابية. بمنعد الصوء، وتردد الخوف، وتمشي مع بطنين، وعائلة، وسنار حين على هدي الظلام.

وأن الراوي، لا أئت، أدكرك الآن بحادي قرية كان يقف على سطح بيت ويصرخ: جاء الصبيح. فيهرول عشرات من أمثالك إلى كهف القرية، إلى أن يعود الجود من حملة التفتيش عمن عادوا إلى بلدكم «متسللين». تلك القرية المنحوتة في سفح جبل ذات بيوت من جدران ثلاثة. أما الرابع فهو ظهر الجبل بيوت لو نظرت إليها من تحت، من كزيم الزيتون، لرأيت لوحة عشوائية رسمها فنان أعشى على عجل، صحرة على صحرة، ونسبي أن يرش عليها شيئاً من نعمة اللود، فقد كان خائفاً من أن يرى هجأة، ما صمعت يده. أما المواقف فإنها تطل على جهة واحدة: جهة الصبيح!

هناك، عرفت من آثار السكينة المدمرة ما سيدفعك إلى  
كراهية النصف الثاني من الطعونة. فإن كسرة صوف  
واحدة، مستهية الصلاحية، لا تكفي لعقد صداقة مع  
الشتاء. متحدث عن الدفء في الرواية، وستهرب مما أنت  
فيه إلى عالم متحيز مكنوب بحبر عني ورق. أما  
الأعاسي، على نسمعها إلا من راديو الجهران. وأما الأحلام  
فليس نجد منساعاً لها في بيت طيبي، مبي على عجل كفن  
دجاج، يُخشى به سبعة حالمين، لا أحد منهم ينادي الآخر  
باسمه منذ صار الاسم رقماً. الكلام إشارات باهية  
تبادلونها في الضرورات القصوى، كأن يغمى عليك من  
سوء لتعدي، فتداوى برمت السمك ... هبة العالم  
المتمدد لمن أخرجوا من ديارهم. تشربه مكرهاً كما تُكره  
الأم على إخفاء صوته في ادعاء الرضا.

تذكر مذاق العسل الخارج الذي كان جدك يرمحك على  
تناوله فتأسي، وتهرب من مشهد جدتك التي تصعب السخل  
على وجهها لتتقي عقصات الحل وتقطف الشهد بيد  
جريئة. كل شيء هنا يرهك على الحسارة والنقصان. كل  
شيء هنا مقارنة موجعة مع ما كان هناك. وما يجرحك  
أكثر هو أن «هناك» قريبة من «هنا». جارة ممسوعة من  
الرغبة ترى إلى حياتك التي يتابعها مهاجرون من اليمن

دود أن تتدخل في ما يعملون بها، فهم أصحاب الحق  
الإلهي وأنت الطارئ اللاجئ

وحيث تقول لأهلك لم أدق في حياتي طعماً أسوأ من  
رمت السمك، يسحر منك الكبار. ألك حياة يا ابن  
السابعة .. ألك ذكريات؟ تقول نعم. وهذا هو الصديق.  
وُلد الماصي فجأة كالمنطر. صار لك ماضي تراه بعيداً.  
وبعيد هو البيت الذي يسكنه وحيثاً وُلد الماصي من  
الغيب. ويماديك الماصي بكل ما منك يداه من أزهار  
الضباب الصرعه على طريق يصعد فوق التلال، ومن رائحة  
الحسين الشبيهة برائحة البلوط المشوي في الموقد، ومن  
عبادة جدك البنية كالتيع الذي يله الماي الخفاقة كصوت  
صرع وُذي بين الحكمة والعث. ولد الماصي كأنداء كلبة  
توشك على الولادة، ومن خومك من العد وُلد الماصي  
كاملاً جاهراً لخطف العروس على حصاد الحكاية. من  
كل ما أنت فيه، ومن كل ما عليك من يؤس المحاصر  
المجائع إلى تعريف الهوية .. وُلد الماصي.

وكما لو كنت تهدي. اليعيد هو السعيد والسعيد هو  
اليعيد سأجعل الليل إتماً لأستعيد عاقبة الماصي وأدوي  
بها شئني أصاب الأرض التشعبة في كائنجيل. وأهدي

وأعرف أبي أهديني فهي الهديان وغني المريض برؤياه، لأنه أنبل مراتب الأكرم.

سيقول الطبيب مرة أخرى: إنه يشكو من سوء التغذية، فهل أقطع عن تناول ريت السمك؟ كلا، ولكنه يتذكر أشياء لا يحتملها من هو في مثل عمره. يتخفى أن يكون فراشة، فهل للفراشات ذكريات؟ الفراشات هي الذكريات من يتقنون العاء قرب بيع الماء، فهل غنى؟ ما ران صحوراً ماأني له أن يدحرج الكلام على مصطبة من رمل؟ إنه يشكو من سوء الحاضر، فلنأخذوه إلى الغد.

ليس لنا في اليد حيلة ولا عد — قالوا — ونحن على هذه الخذل، مربوطون إلى مصائر متينة التركيب، ومشردون إلى هاوية بعد هاوية. مشتري الماء من أبار الحجر، وبقتصر الخبر من سخاء الحجر وبحيا، إن كان لنا أن نحيا، في ماضٍ رصيع مرروخ في حقول كانت لنا، مد مئات السنين، إلى ما قبل قليل . . قبل أن يختبر المجين وتبرد أباريق القهوة بساعة نحس واحدة دخل التاريخ كلفس جرسور من باب، وخرج الحاضر من شبالك. وبمذبحه أو اثنتين، انتقل اسم البلاد، بلادنا، إلى اسم آخر. وصار الواقع فكرة وانتقل التاريخ إلى ذاكرة.

الأسطورة تعرو، والعرو يعزو كل شيء إلى مشيئة الرب  
الذي وعد ولم يحلف للمعاد. كتبوا روايتهم. عدنا.  
وكتبوا روايتنا عادوا إلى الصحراء. وحاكمونا لما، ولذم  
هنا؟ فقلنا: لماذا ولد آدم في الجنة؟

تذكر، لتكبر، لعسك قبل الهاء

تذكر تذكر

أصابعك العشر، وانس ثلثك

تذكر ملامح وجهك

وانس ضباب الشتاء

تذكر مع اسمك، أثك

وانس حروف الهجاء

تذكر بلادك، وانس السماء

تذكر تذكر



وعشت، لأنّ بدأ إلهية ختلتك من عيون العاصفة إلى وادي  
غهر دي ررع. وعشت في مسرلة الصفر، أو أقل وأكثر.  
عشت عصي القلب، قصي الآلثفات إلى ما يوحع ويجعل  
الوحد جهة، وإلى ما يرحع من صدى أجراس تصع  
المكان على أهبة السمر: من هنا مررت العجريات  
المصاهات بمخفي الرقص والإعولة. علّقن سراويلهن على  
أعصان الشجر وارتمين العري المتحفّي في رشاقة الحركة.  
على الخيال وحده أن يرى مصيحة القرّي في إيمان المرء  
بداته المتحفّة عن الإفصاح. والعجريات الماهرات يدرس  
البرق في عظام المشاهدين، هنّ هنّ القدرات على ستر

العري بصوه يسطع من نهود ترشح حبيبات ماء بصحك

..

في كلّ وَليدٍ عحرةٌ وهي كل عجربة سَفَرٌ مرتجل. وفي  
كل سمر حكاية لا تُروى إلّا بعد اجتياز الدكرى من  
الخل من أصحابها. ألهذا تحمّلت العجر معك كلما  
افترق المكان عن زمانه، وكلما تشرد المكان في مكانه  
الباحث عنه في ما بقى من روائح هي الدليل على حسنة  
الروح؟ ألهذا بحثت في النساء الغريات عن فوصى الجسد  
في شهوة العجربات الرافصات على حبال لريح،  
واصطبحت المعنى لخالي من الرزكشة، في الحب، إلى  
آخر الحب؟

وعشت، لأن بدأ إلهية أنقذتك من حادثة عشت في كل  
مكان كمسافر في قاعة انتظار في مطار يُزبَلَدُ، كبيره  
جوّي، إلى مطار . عابراً عابراً بين اختلاط الهُما بالهناك،  
ورائراً متحرراً من واجبات التأكد من أي شيء. هكذا  
مرت العجربات على حقل أيامك البعيدة، في طريقهم  
الشريد من الهدى إلى ما يرد على حاسة اليبس من هواجس  
بلا خرائط وهويات .. جميلات وبائسات وراقصات بلا  
سبب، سوى ما للدم الساخن من نسب إلى الإيقاع عُزُّ

ههنا، يبرز خيام مهاجرة إلى معامرة قد تجلن فيها  
كغاف حياة في تناول اليد. ولا يودع شيئاً لئلا يخرق،  
فالحرر مهمة لا تليق بهن، فهن الحريمات سد ولذن.  
وبرقص كمي لا يمتن. وتنزكن الأمس وراهن حصة من  
رماد موقيد مؤقت. ولا يعكرون بالعد لئلا يعكر التوقع صمو  
الارتجال. اليوم اليوم هو الرمس كله /

فاحلر طريق المعجريات، لأنه لا يوصل إلى أي هدف

وعشت، لأن كثيراً من الرصاص الطائش مر من بين  
دراعيك ورجليك ولم يعبك في قلبك، كما لم يشغ  
عجز طائش رأسك. وعشت لأن سائق الشاحنة انتبه في  
اللحظة الأخيرة إلى ولد يصرخ بين مؤخرة الشاحنة وبين  
الجدار الذي تلتصق به. وعشت، لأن سائق سيارة رأى  
في الظلام قميصاً أبيض واقفاً على حافة الشارع، فألقك  
من خطر الليل وأعادك إلى الأهل المشغولين بتقليب  
الافتراضات على جمر الخوف. وعشت، لأن صوء القمر  
اخترق الماء وأضاء صحوراً صلبة أقمعتك بأن اموت  
سيكون مؤلماً لو قمعت من تلك الصحرة إلى البحر، لا  
سباحة في مياه الأبدية.

وعشت، دون أن تعرف كيف تصوع كلمات الشكر

البسيطة، حمداً للحياة حمداً. ولم تسأل إلا متأخراً: كم مرة مثٌ ولم أنتبه؟ وكلما مثٌ وانتبهت انتبهت الحياة كحبة خوخ، فلا وقت طويلاً للمحرف من المجهول ما دامت الحياة، وهي أنشئ، مشغولة عن الموتى بشجديد صباها ومحورها وتقواها، على مرأى من المحرومين.

تجلس في مطعم المطار في ركن قصي، وتفكر في جدوى الرحلة: هل لنا في دهب أم إياب. لا أحد ينتظري في الدهاب ولا سبب يدعوني إلى الإياب. لي أكثر من اسم وأكثر من تاريخ ميلاد في جوارات سفر جديدة الأعطف، حمراء وورقاء وحضراء. وتحرك أنا في هذا الرحام المسامر، وأبصر كبصائع الحوانيت المعطفة من الجمارك، ومحروس بأجهزة الإنذار الإلكترونية. لا أحد يسألني من أنت ولا أحد يلتفت إلي مشيتي المتلعشمة، وإلى الرر المقطوع في معطفي، وإلى بقعة الزيت على قميصي. كأني شخص هارب من إحدى الروايات المروعة في كشك الصحف، هارب من المؤلف والقارئ والبائع وفي وسعي أن أصيب وأن أهدف وأن أعذل وأن لهذل وأن أقتل وأن أقتل وأن أمشي وأن أجلس وأن أطير وأن أصير ما أريد وأن أحب وأن أكره وأن أعلو وأن أهبط وأن أسقط من أعالي الجبال ولا أصاب بسوء لأنني لا أعتدي على حقوق

المؤلف، وفي في المصائر، أعني مصائري، وجهة نظر  
أخرى /

ثم يثقف أحد في المطار عن الإفراط في الخروج من  
نصبط المؤلف، فاسترسلت في طرق المعلوم على فولاد  
الجهول، فتطير شرر المكن من خيال كلما صاقت عليه  
الجدران منع كبلور مكسور في مجار السجون. رأيت إلى  
معسك في المطار التالي شخصاً غير مرعوب فيه، لافتقار  
الوثائق إلى بقية الربط بين الجغرافيا وأسمائها. فمن وُلِدَ في  
بلد لا يوجد . لا يوجد هو أيضاً. وإن قلت مجراً إنك  
من لا مكان قيل لك. لا مكان للامكان هناك. وإن قلت  
له، لموظف الجوارات اللامكان هو للمعنى، أجهل لا  
وقت لديها للإبلاغة .. فادهب إذا كنت تبحث الإبلاغة إلى  
لا مكان آخر /

ورأيت إلى معسك في مطار ثالث ورابع وعاشر تشرح  
موظفون لا مبالين درساً في التاريخ المعاصر عن شعب  
السكية المورع بين الماضي والاحتلال، دون أن يهتموك وأن  
يسحبوك إداماً بالمخول. ورأيت إلى معسك في شريط  
سيمائي طويل تروي على رسلك ما حل بأهلك مسروقي  
اللسان، والقصح والبيت والبرهان. . . . .

جوازات التاريخ العملاقة وجرفتهم من مكانهم وسوت  
المكان على مقاس أسطورة مدججة بالسلاح وبالقدس.  
ثم لم يكن انتقد في الأسطورة لن يكون الآن وتساءلت:  
هل من جلاّد مقدس؟ ورأيت إلى نفسك تكمل ما تبشر  
لك من عمرك، بلا مؤرخين ومؤلفين في المطار المزدهم  
بالمسرعين إلى مواعيدهم التجارية والعرامية /

وأنت الضفدع من لقاء أو وداع، تجلس على المقعد  
المجلدي وتنام. وتستيقظ لأن مسافراً مستعجلاً تعثر بك  
واعتذر دون أن يخطر إليك. تمضي إلى الحمام وتغسل  
ثيابك الداخلية وجواربك وتحقق دفنك، ثم تتوجه إلى  
الكافيريا لتحتسي فجاج قهوة، وتبحث في الجرائد عن  
آخر أخبارك هل من بلد يقبل بي؟ فلا تجد فيها، في  
الجرائد، إلا أخباراً مُفضلة عن الحروب والزلزال  
والفيضانات. لعل الله غاصب على ما يعمل البشر  
بالأرض! لعل الأرض حبل بالقيامة!

ما مصى أن يحيا إنسان في المطار؟ تهجس: لو كنت  
مكانني لكتبت مديحاً لحريتي في المطار: أنا والديانة  
خزّان / أختي الديانة تحسو عني / تحط على كتفي  
ويدي / وتذكرني بالكتابة / ثم تطير وأكتب سطرًا:

كأن المطار بلاد لمن لا بلاد له / وتعود الذبابة بعد قليل /  
وتحمر الرتبة، ثم تطير تطير تطير / ولا أستطيع الحديث  
إلى أحد / أين أختي الذبابة، أين أنا؟

نرى إلى مصك في شريط سيمفوني تُحدّق إلى امرأة تجلس  
في الركن المقابل لك في الكافتيريا. وحين تراك وأنت  
تراها تتشاعل بتطيف فميصك من فطرة بييد، وقفت  
ككلمة شاردة من عبارة كُنت ستقولها لها لو كانت  
معك. جمالك هذا كثير عني كسماء، فارفعي السماء  
قليلاً لأتمكّن من الكلام. ترفع عيبك عن صحن الحساء  
الساحر، تراها تراك، لكنها سرعان ما تتشاعل برش الملح  
على طعامها بيد برنجف عليها الصوء، فتحاطبها في سرك.  
لو كنت مثلي مموعة من الخروج، لو كنت مثلي! تشعر  
بأنك أخرجتها، فتظاهر بأنك تخاطب البادل لا، هموا  
لؤلؤة من غرق تلمع في جيدها المرفوع للمشاء، فتقول لها  
في سرك: لو كُنت نبتك لَلْتَحَسَّنْ حبة العرق. الرغبة  
مائلة واصحة كالصحن، كالشركة والمعمقة والسكين  
كرجاجة الماء، كالشرشف، وكأرجل الطاولة والهواء  
مقطّر تلتقي المظنات وتشعران بالخرج فتعترقان. هي  
تحتسي جرعة من كأس البييد الذي دابت فيه اللؤلؤة.  
وأنت تشعر بأنها قد سمعت بكاء الحوت في محيط

عميق، وآلا، فما الذي يُعْرِقُها في هذا الصمت الكثيف؟  
 تقول لها في سرك إن أعلنوا أن قبيلة مستعجر في المطار،  
 فلا تصدّقي لأمي أنا من أطلق هذه الشائعة لأقترب  
 منك وأقول لك إني، لا غيري، من أطلق هذه الشائعة.  
 يحزن لك أنها اطمأنت، فرفعت صوتك متلاًئلاً، واتسلّ  
 خيط من الرعية من أطراف أنامدها، وحرك في عمودك  
 المقرّي ببضة كهربائية، وهرتك قشعريرة ... فتولّطت  
 ونأوتت، وفاحت رائحة المايخو من سرير سريّ مغلق في  
 الهواء، وباحت كمنجات بعيدات وارتحت أوتارها في  
 نهاية الهواج /

لم تنظر إليها، لأنك تعلم أنها تنظر إليك ولا تراك، فقد  
 خلّك الصباث على طاولتك الدائخة من فرط ما كدست  
 عليها من أدوات التأويل، ومن أوراق بيضاء لا يكفي  
 عشرون مؤلّفاً لإشباعها بالكلمات. لم يكن البادل، بل  
 هي من رجت على إغمائك، وقالت: هل كانت وجهتك  
 شهية؟ وأنت — سألتها، فقالت: سعدت بلقائك . هل  
 تدكرني؟ قلت: قد يعقد المرء ذاكرته في المطارات.  
 فقالت: وداعاً لم تنظر إليها وهي تبتعد، لأنك لا تريد  
 أن ترى الرعية وهي تدقّ بكعبين عاليين رخام  
 الكاتماثيات، وتوقف في أجساد الكمنجات شيقاً إلى



الرحيل. لكك تذكرتها حين تسئل العاص، كما تسئل  
 خدر السريد إلى جسدك، بدءاً من الركبتين إلى ما لا  
 تتذكر من غابة الجسد. أثنا اسمها، فقد تعرفه عددٌ على  
 طاولة أخرى في مطار آخر

السجور كشافة. ما من أحد قضى ليلة فيه إلا درّب  
 حنجرته على ما يُقْبَضُ الماء، فتلك هي الطريقة المباحة  
 لترويض الغرلة وصيانة كرامة الأكم. أن تسمع صوتك  
 المبحوح يعني أن اخرك قد سامرك وأمر لك بأخبارك  
 الشخصية، في غرفة كلما صاقت اتسع ما رزأها  
 واحتضت العالم بشغب المصاحفة /

وأنت إذ تعني لا تُعني لتتقاسم النيل مع أحد. ولا تعني  
 لتقوس إيقاع وقت بلا إيقاع ولا علامة، بل تعني لأن  
 البرانة تُعريك بماجاة الخارج، تُقصايك في كمال العرة.  
 تأتي الحقول إليك بحفيف السابل المعبية. والشمس تملأ

قلبك بصوء البرنقال. وتأتي إليك رهور السموح المبشرة  
كشعر فتاة عرسوية. ورائحة القهوة المشحونة بهياج الهل  
تأتي إليك. كأنك لم تشبه من قبل إلى ما في خداجك  
من سعة ودعة. وإلى ما كان يتصلك من احتماء  
بالطبيعة.

وكما في القصائد والفنقى، يحتفل الغموص بالوضوح،  
لأن بؤرة سرية تطلق إشعاعها في الجهات وفي الكلمات،  
وتحرم الظلام من أبدية الصمات. ترورك الذكريات  
الصغيرة قطيماً من ماعز وأبائل تتقافز كأكوار صوبر على  
طريق جبتي. في كل أعية فتاة تنتظر على محطة باص أو  
على شرفة. وعلى كل شرفة سيدٌ يلوح وحمامة أمة

وأنت، أنت وأكثر /

مأهول، كمجتمع سكاني، بالصاعدين على الدرج  
وبالنازلين إلى الشارع. مأهول بأدوات الطبخ والغسلات  
وراع الأزواج على أفصل طريقة لتقشير البطاطا وقلبي  
السمك. وجميع خفيف في المعدة يتبغ وجميع ميتافيزيقي:  
هل تصاب الملائكة بالركام؟

وأنت، أنت وأقل /

لا تستطيع ولأوج يوم جديد بلا حشام، وحلاقة،  
وصحيفة، وفجاء قهوة. حجم الأرض هذا متران مرتعان  
لها باث حديدي دائم الإغلاق أصوات أحذية عليقة  
تحمل إليك حساء العدس المطبوخ بالسوس، فتدرك أن  
بهاراً جديداً قد حلّ صيفاً على العالم. لكنك لا تُحصى  
الأيام، فلا تخرز في رسائلك ولا حصي للتقويم الجديد.  
ولا نعلم إن كانت حرب جديدة قد اندلعت، أو كانت  
الحرب القديمة قد وضعت أوزارها. ولا نعرف إن كانت  
ثيابك قد توقفت عن بثّ رائحتها، أم أن حاسة الشم  
فيك هي التي تعطلت.

لا جديد إذاً. لا جديد في هذه القطيعة الصلبة مع الزمن.  
لا جديد سوى قديمك الراحف منك وإليك، متحولاً  
فكرةً وصورةً تتناوهان، بلا مهارة، ذرائع هدوئك الذي لا  
عنى لك عنه لمتنفس الطبيعي في هواء فاسد لا شيء  
رهن إشارة القلب الذي كان يأمرك فتصاع، ويأمرك بأن  
تعضي فتعضي، وبأخذك إلى أقصى ما في مطاردة الجمل  
من برقة، وإلى أقصى ما في الكلام من خشونة الهجاء.

كم أنت هادئ لتقول الهجاء محوثة الذعة القادرة على  
ساطحة الجنادل، كلما توقفت البلابل عن العناء، وامتلئت

هرش غير أصيلة، إلى إغواء حمار الهجاء هروسة مقهورة  
تعوض نقصان التشبه بالقادر برفع إنشاء الخاسر إلى مرتبة  
العرش، لكنه، الهجاء، يُطرب الجمهور العاصب، ويعذب  
العالم بطيور الأولاد الذين يلاحقونه بأصوات التثك  
والثنائم، ويحرمه من تنويع الصر بالطرب.

وأنت، تقريباً أنت /

لا سجين ولا طليق، فالسجن كثافة. ما من أحد قضى  
ليلة فيه إلّا وأمصى الليل كله في تدليك عضلات الخربة  
انتشجة، من فرط السهر على الأرضة، حافية وعارية  
وجائعة. وها أنت ذا تحتصها من كل ناحية، حرّاً متحرراً  
من عبء البرهان. ما أصغرها وما أبسطها وما أسرعها في  
الاستجابة إلى نشاط السراب. وهي فيك وفي متناول  
يدك التي تدقُّ بها جدران البرانة، في اقتباسك أمثلة  
الطير، وفي هطول المطر، وفي هبوب الرياح، وفي ضحكة  
الصوء على حجر مسي، وفي كبرياء شحات يؤبّخ مانعيه  
إذا بحلول، وفي حوار غير متكافئ مع سجانث حين تقول  
له:

أنت، لا أنا، هو الخاسر، فمن يحيا على حرمان غيره من  
الصوء يعرق نفسه في عتمة ظله ولن تتحرر مني إلّا إذا

بالتعش حررتني في الكرم، كأن تعلمك السلام وترشدك  
إلى بيتك. أنت الخائف، لا أنا، مما تفعله البرانة بي، يا  
حارس يومي وحلمي وهداياتي للمعومة بالإشارات لي  
الرؤيا ولك البرج وسلسلة المعانيج الثقيلة والبدقية المصونة  
إلى شبح. لي العاش حريري الطيع والمنس، ولك الشقر  
عليّ لئلا يسحب العاش سلاتك من يدك قبل أن يرتد  
إليك طرقتك. الحلم مهنتي، ومهنتك استراق السمع،  
سدي، إلى حديث غير ودي بي وول حررتني /

لا يصغي السجبان إليك، ولا يراك وأنت تعافله وتدخل  
في نفسك دخول العريب إلى مقهى على الرصيف. لم  
تحب المقهى وملاهي الليل، كما أشاعوا عنك. المقهى هو  
امتلاء الروني بمصول الصر المتعطر إلى مراقبة المصائر  
المقهى هو إغراق الوقت من ضجر مصاحب للكائن في  
كؤوس عيمة والصجر مدل كالشهوة المتأججة في غير  
موضعها المقهى هو الشرك الملائم لاصطياد أفكار سبها  
أصحابها مع البقشيش على الموائد، واقتباسات غير دقيقة  
بناويز ثقافية تشبه الوجبات السريعة.

لكنك تحس الآن برغبة ملتهبة في الذهاب من البرانة إلى  
المقهى. ستجلس وحدك مع فسجان قهوة وجريدة قد

تقرأها وتسي ما قرأت. وقد لا تقرأها وتتذكر ما لم تقرأ.  
 لكنها ستارة ورقية لاختلاس النظر إلى الآخرين: إلى سيئة  
 تحاطب كتبها بحمان عائلي، وإلى جسرال يأكل بهم،  
 فالجسرال هو أبيض كائن بجوع . وإلى فتاة تزل غصلة  
 شعر على جبينها برفق المشطرة . وإلى صحافي يدون  
 ملاحظات عن رجل أمامه يحاول حل الكلمات  
 المتقاطعة. وحين تحتل النظر إلى نفسك، تكتشف أنك  
 لا تفكر بشيء ولا تنظر أحداً، ولا تشعر بهراع أو امتلاء  
 أو ضجر.

الصوت ماطع، فخرج إلى الشارع النازل من قسم الصور  
 إلى البحر. السجى هو حرمان الكائن من مشهد الشجرة  
 والبحر. والطربة هي المحيلة القادرة على استدعائهما إلى  
 السجى، وجعل ما ليس مرئياً مرئياً لا .. هذا ما يفعله  
 الشعر. الشعر بدأ فعل حرية، ويجعل ما هو مرئى غير  
 مرئى عند مواجهة الخطر والمشي رياضة وحرية. تتخيل  
 أنك تمشي على شارعك الشخصي بطريقاً في البداية.  
 تتملى شبائك مفتوحة على الداخل، على أسرار صغيرة  
 وحتمات تقيس المسافة بين لقاء طويل ووداع صغير،  
 هيبتك شعور حامض بالدم على خطأ لم ترتكبه. كنت  
 أنا المسؤول عما حدث لكن الحرب أعادت كلاً منا إلى

خييمته. أنت إلى مشيتك الوطني، وأنا إلى السجن، علم  
تَقْدُ أغيةَ الجُنْدَيْنِ مشتركة!

المشي رياضةٌ وحريةٌ تنخيلُ أباك تمشي على شارعك  
الشخصي سريماً سريماً لتحرق السعيرات الرائدة  
بسايلويتش الشورما وألواح الشوكولاته أَلْذَهْنُ والتَّكْر  
هما شهوة السجن إلى استرداد عافية المؤلف والمشي  
رياضة الكلمات وتدريب الذاكرة على ما نحتاج إليه من  
سبيان الرؤا والإهانة المشي السريع يخفف عن  
الكلمات شحم النعوت والمترادفات وما يجعل السهم  
طائشاً. المشي السريع يصع الرمي في موقعه الصحيح من  
الواقعي مهما تحوَّش الضباب بالصورة والعكرة والرؤيا.  
المشي السريع ينفُ الكلامَ بمنزلة القوم الرشيق تحت  
سماءٍ صافية. فلنُسرِّحْ قيل أن يوقعك السجَّانُ عن رياضة  
النجار في منتصف هذا الشارع الواسع. ولنُسرِّعْ قيل أن  
يوقفك، ويرمي إليك هواء البول الصباحي.

وَأَنْتَ أَنْتَ وَلَا أَنْتَ فِي آدَ وَاحِدٍ /

مقسَّمٌ إلى داخلٍ يحرق وإلى خارجٍ يلعلل لكبك حُرٌّ  
في الاختلاء بحريةٍ غير حَمَّالةٍ أوجه . حرٌّ في وصع  
الحيال على ركبتيك. ولا تجري، كما هي العادة، مقارنة



هنا سجن كبير وسجن صغير، لأن لا شيء في البرانة  
 يلهيك عن التحديق إلى بؤرة سوداء تشع نوراً، فتعني له  
 وتطير، كما يفعل المنصوف، أبعد من هدهد في أقاصي  
 السؤال!

لم يسحرك أَكَلَةُ الدُّوْتَس بِمَذَاق السِّيَاكِ الْعَمَلِيَّ خَرَجُوا  
 مِنْ أَسْطُورَتِهِمْ سَالْمِينَ، وَدَخَلْتَ وَأَهْلَكَ بِلَا اسْتِعْدَادٍ كَأَنَّهُ  
 فِي النَّيْهِ. تَعْرِفُ تَمَاماً مَاذَا تَرَكْتَ وَرَاءَكَ: مَاصِياً غَيْرَ مُدَوَّنٍ  
 فِي شَيْءٍ، عَنِ طُرُودِيَّيْنِ مُجْدِدٍ لَا يُزَوَّى عَنْهُمْ إِلَّا مَا يَقُولُ  
 أَعْدَاؤُهُمْ عَنْهُمْ. لَكُنْهُمْ لَمْ يَحْطَمُوا هَيْلِينَ وَلَمْ يَكُونُوا سَبِياً  
 لِلْحَرْبِ. كَانُوا طُيَّيْنِ سَالْمِينَ، وَلَا دَسِبَ لَهُمْ غَيْرُ أَنْهُمْ  
 وَبَلَّغُوا عَلَى سَمُوحٍ شَتِيهِتْ بِاللَّجْرِ الْمُؤَذِّي إِلَى اللَّهِ. وَكَانُوا  
 شَجْعَاناً بِلَا مَيُوفٍ، وَعَمُودِيَّيْنِ بِلَا بِلَاعَةٍ، فَانْكَسَرُوا أَمَامَ  
 الدَّبَابَاتِ، وَهَجَرُوا وَبَعَثُوا فِي مَهَبِّ الرِّيحِ، دُونَ أَنْ  
 يَمْقُدُوا إِيمَانَهُمْ بِالشَّعَاءِ مِنْ جَرَحِ التَّارِيخِ.

مَنْ أَتَتْ فِي هَذِهِ الرَّحْلَةِ؟ أَشَاعِرُ طُرُودِيَّيْنِ نَجَا مِنَ الْمَدْبَحَةِ

بيروي ما حدث، أم خليط مه ومن إغريقي صل طريق  
السودة؟ إن فتنة الأسطورة تجعلك سهياً لانتقاء  
الاستعارات. - فخذ منها ما يصلح لصعود الشيد إلى  
غشام آخر، يتسع لصوت الصحبة الطروادي انغود،  
ولعجر النصر الإغريقي عن إعادة الشباب إلى المحارب  
الذي شاح في ثنائية البيت والطريق.

مشدوداً كالوتر بين الماضي والعد، تعرف كل ما خسرت  
وتركت وراءك. ولا تنبئس أمراً من أمور الأمام. لكن  
جاذبية أفقية تدفعك بقوة العاصفة إلى محتويات الأمام،  
إلى مجهول فانس في قصيدة لم تكتمل تبدأها أنت، ثم  
تقوم هي بتولي مسارها، حيث يتغلب المصنوع على  
الصانع والوليد على الوالدة. مستوك العالم، حين قلت إن  
الطرويدي يقوم، وغسروا أحلامك قبل أن ترها وقلت.  
انتهدت قليلاً لأقرب، فقالوا: هذه هي طريقة النادم في  
الكلام. مهل بدمت حقاً على هذا السمر؟ قلت لا  
أعرف ما دمت في أول الطريق.

وكان عليك أن تحتار الهامش لتعرف أين أنت الهامش  
باعدة تطل على العالم، فلا أنت فيه ولا أنت خارجه.  
الهامش ورواية بلا جذران الهامش كاميرا شخصية تنفي

من لشهد ما تشاء من صور، فلا يكون الملك هو الملك.  
ولا يكون مقلع داود إلا سلاح جوليات هل صحيح أن  
من يكتب قصته قبل الآخر يكسب أرض القصة؟ لكن  
الكتابة تحتاج إلى محالب كي تحفر الأثر في الصخر.

وسموتك احالم حين احترت الهامش لتري حلمك وبرك  
مُلكياً على ندكر اسمك القديم الذي يتبعك كظلمك، ولا  
ينطق. لو نطق الظل لأرشدني — قلت لي. أمّا أنا فذهبت  
إلى الشارع أهتم وأسر وأهتم بسقوط اندرائع  
والأسباب، حتى تحلل لي أنني عذرت وتحررت وكفرت  
عن دبوب لم أرتكبها. وكنت تنظر إلي من الهامش، لأن  
المساحة كما قلت لي مصفاة ومرآة. وهي المساء التقية،  
كما هي العادة، فعانقني ورتت علي كقصي وقتت لي:  
سامعي عدأ معك، لأن الهامش جائل ولا يعمر.

طريق يملو ويهبط، يتموج ويتمزج ويطول، ويتمزج إلى  
طرق لا حصر لها ولا نهاية تجتمع باليدية كم مرة بدأ  
من البداية؟ ونحوها من موت كثير، وهرما السيان، وقتت  
لي: نحن سجو ولا نتصر، وقتت لك. النجاة هي انتصار  
الطريقة الممكن على الصياد. الصمود هو اليقاء والبقاء هو  
أول الوجود. وصممت، وسال دم عرير على السوادحل

والصحارى دم فاص عن حاجة الاسم إلى هوية،  
وحاجة الهوية إلى الاسم.

وبحثنا عن رهزما الوطنية، فلم نجد أفضل من شذائق  
المعصان التي سماها الكنعانيون «جراح الحبيب»، وبحثنا  
عن طائرا الوطني، فاختربنا «الأخضر» تيمناً بانبعاثه من  
الرماد، وتجنباً لسوء فهم مع أخوة «المسيح»، وبحثنا عن  
علمنا الوطني، فأرشدنا بُغْدَا القومي إلى بيت الشعر إياه،  
الذي أغدق على الألوان الأربعة أوصافاً قد تحلاني  
الموصوف، ولكمها نهيج الخامسة.

وسال دم عزيز حتى صارت قبة الدم... ذم دليل العدو  
إلى طمأننة داته الخائفة مما فعل بها، لا بما قد فعل به.  
صحن الدهن لا وجود لنا على «الأرض الموعودة» صبرا  
شبح لقتيل الذي تطارد القاتل في النوم وفي اليقظة وفي  
ما بينهما، فيضطرب ويكتب ويشكو من الأرق ويصرخ:  
«ألم يموتوا بعد؟» كلا. فقد بلغ الشيخ سن الغمام وسن  
الرشد وسن المقاومة وسن العودة. الطائرات تطارد الشبح  
في الهواء. الدبابات تطارد الشبح في البر. والعواصم  
تطارد الشبح في البحر. والشبح يكبر ويحتل وعني القاتل  
حتى يصير بالجبون:

على شرفة في مشعى الأمراض النفسية تطلّ على آثار دير  
 ياسين، يجلس ملك إسرائيل الجديد ويهدي: ها، ها  
 كانت بداية معجرتي. ها قتلتهُم ورأيتهم قتلَى. رأيتهم  
 موتى ملء البصر والسمع ها سمعت أنين الوحوش  
 البشرية لدي لم يعكّر صفو موسيقي. ومن ها بشرت  
 أصواتهم شمالاً لتفرغ سائر القطيع الذي يُرتق ماء الأرض  
 المقدسة. ومن ها أدعت الدعر في ما تبقى من حيوانات  
 تدبّ على التتير.... ليدخلوا في رحلة التيه. لا، لا فالتيه  
 ليس اللفظ الملائم لمصيرهم. التيه خصوصيتي. التيه بقصي  
 إلى الهداية. التيه بقصي إلى عودة. التيه احتكاري كما  
 هو الله لي. يتناول الملك أفراس المهدي، ويتذكر: لولا  
 بطولتي، لولا ما فعلت بدير ياسين لما قامت مملكتي. لولا  
 العياب، عيابهم، لما حصرت. أن لا يكونوا هو أن أكون.  
 قصّ بن طلعوا عليّ، أنا الذي لم أرض بهم جيراناً أو  
 عبيداً، لا حطّابين ولا سقاة ماء. يضعط الملك على كأس  
 الماء بعصية يهتسه، هيرع من يده حيط دم، يهدي: لم  
 أر دم الشبح الذي يطارده جيشي في لبنان وأرى دمي؟  
 ها قتلتهُم ورأيتهم قتلَى، فكيف غشوا الموت وعصوا  
 أوامري.. وأنا من يهت الموت والحياة. أنا الملك، منك  
 إسرائيل الجديد. وكيف صار ثلث شبحاً وكيف تطاول

الشيخ علي؟ أأن في حلم أم في كابوس أنا؟ أما من شرفة  
في هذا العالم تطل على نهاية أخرى؟ أبعثوا عبي دهر  
باسور ثانية، أبعثوا عبي صراخ هذه الأشباح، أو أبعثوني  
عنها .. فلا أستطيع الاعتذار لها ولا أريد حيرام! حيرام  
يا ملك صور أشعني. لقد عصب علي شعبي، وقال إن  
حربي عبت، وإن اعتبال الشيخ عبت، وإن سلامي عبت.  
أشعني يا حيرام ولو بضلع كذب، أخذر به عقلي وقلبي  
وشعبي، وأشفي من أثر شعبي. ألا تعرفي؟ ... ألا تسعني  
يا ابن الكلبة والكلب! لا أحد يستمع إلى الملك المتكف  
في بيته المظلم على موقع جريحته الأولى. وحين يخرج  
مشكاً على عكاز لزيارة قبر زوجته لا يتكلم مع أحد  
الشيخ هو رفيقه الوحيد. عبوة الذي لا يفاديه، عبوة  
الذي يعود في مرضه، ويقوده إلى لقائهما الأول هنا  
قتلني، ودقنتني في هذه الحفرة، فلا يقوى على صدّه،  
ويتهار بسقط القاتل في قبر القاتل!

سألتك: ما معنى ذلك؟ فقلت لي: قد يحتاج المعنى إلى  
وقت آخر ليصبح في ملح الأرض. وقد يحتاج إلى شاعر  
آخر خلو من الطرواديين والإغريق، شاعر يظن من عب إلى  
هاوية لم يفتح فيها، فتصير بحيرة. أم الآن، فكنتي من  
المعنى بتلوينة يد من بعيد: ما رلما أحياء، وقادرين على

تعديل النص الإغريقي، والمعصل الأخير، فصل النهاية  
مفتوح إلى ما لا نهاية!

المجاز، الكناية، والاستعارة، والتورية

هي ظلُّ الكلام، فلا

صورةً انشيء كالشيء أو عكسه

إنها حيلة الشعر في التسمية

ولي هي «نجار مازب أخرى

كأن أترك الأغنية

على يرسلها ...

تتلقت شرقاً وغرباً

وتقرر بين السماوات والأودية

وتعالج أوجاعها

بقليل من السخرية



سألتك، فقامتني قديمة تبحث عن هدف مراوغ. هبطنا إلى ملجأ وسألتك بمكر تعرفه في: متى تُفجر الشجر؟ قلت بنزق: إلى أين؟ قلت: إلى ما لا يعرف .. إلى مجهول جديد. أليس هذا هو طريق المعنى؟ لم تعجبك السحرة التي تحمل في غير مقامها كأن يصحك المرء في جنازة، أو يركي في عرس. فأضحت بوجهك عني وابتعدت وعيت، وأصغيت إلى صوتك يناديك ويرميك بوخير الإبر، كلما وصلت إلى معتوق أو مسحدر- لماذا ... ماذا نرث عن جيل الكرمل؟ لم تصدق من صدقوك. فقد عاملوك كما يعامل المصيفون طائراً مهيباً الجناح نوارى عن

السرب، فعالجوك ودؤبوك على الطيرك الشرطي،  
فطرت وعلموك العناء فعثيث وقلت: أنا ما سأكون

في القاهرة الساحرة الساهرة تحلم بأنك في الجنة، فتقوم  
في الليل وتمتص النافذة لتتأكد من صحة الأبدية كلما  
رأيت النيل لكر، لماذا برلت عن الكرمل؟ يعيب السؤل  
عن الآخرين ويحصر فيك وحدك، سرها خفياً كالآلام  
الشبح التي يوقظها غصن متور فتقول: كفى هذا. وتنام.

بوقظك سؤالي: متى تسحر السمن؟ فتجيب بمصيبة  
تستدرج المعنى إلى العبث: لن أخرج! فلا تترك بأن يهروت  
ليست حينها وكان عليك أن تقول ذلك هناك، فتخجل  
من تصويب الخطأ بالخطأ، وتستدرك: أصي لن أخرج من  
جهة البحر، لأنني لا أجيد السياحة. أما زحك قليلاً، لكن  
كلامك مظلوماً بحرّي كله، وأنت لا تعرف البحر؟ تهدأ  
وتقول: البحر سرير استعارات مائة البحر مشهد لغوي.  
البحر إيقاعات.

خرجنا من الملجأ إلى شوارع خالية من المارة والقذائف.  
إنها هدنة تصمم الآذان. لقد أفرغت السماء من الطائرات  
وامتلأت بالأررق الذي ينصبب بحاراً. بوسعك الآن أن  
تحصي دقائق القلب، في الوداع الحزين لشوكة تبحث عن

طريق أبعد أبعد، للوصول إلى أرضها التي كانت على  
 مرمى تماحة، فسألتك هل ابتعدت لتقترب، أم اقتربت  
 لتبتعد؟ قلت: الساخ غير ملائم لتصلح الجرح وتشريح  
 القوية.

وبكيت كما لم تفعل من قبل. بكيت من كل الخواس.  
 بكيت كأنك لا تبكي، بل تدوب دفعة واحدة وتمطر.  
 فلمحتك من كل جهاتك وحملتك إلى شفتك الصغيرة  
 في الطابق الثامن من نهاية نطل، من بعيد، على البحر  
 الذي مستبحر فيه الشفس. كل شيء يبكي: السماء  
 الوطقة، الرصاص الذي يودع المقاتلين يبكي. الشوارع  
 تبكي، والشرفات وأطلال البيات، والشعارات على  
 جدران المدينة تبكي، وللواعيد المرمية في انعكس  
 والمستحيل تبكي.

تركك وخرجت ألقى نظرات الوداع على من تدوروا  
 على دعاء الدموع ولوحوا بالبادق باسمير، فأوحشتني  
 إشارات النصر المرسومة بأصابع لم يتبه أبطالها إلى ما نتر  
 منها. وسمعت هتافات ترف البطولة إلى بدايات جديدة.  
 العكرة جمر. والطريق هو البحث عن صواب الطريق.  
 وسنجدو وننتصر. لم أعد قادراً على البكاء، فقد أحرق

العصب دموعي، ولم أعد قادراً على النظر إلى الحاضر،  
 فقد رفعتي الحساسة إلى أعلى مدارجها، وأصابت شمس  
 العد أنماقي كلها فكانني أقوى مني ما دامت البداية فيها  
 حثية، وفيما من كثافة العزم ما يروي الصحراء لو تقطر  
 ومطر وفيما من آثار الظلم ما يُحميها عن طلب العدالة  
 بفصاحة اللسان والشجون والبيان. لم يعد البحر مجهولاً  
 وكف صوت النسيم المبحرة عن العويل، وصرختي من  
 كل مرفأ .. نهلاً.

وحين عدت إليك، ورأيت الأحضر الرمادي في عيني  
 صالتيين، سألتك. هل تعجبك الهمرة في آخر الكلمة؟  
 فأجبت. تعجبي أيتها وقفت، ولا تعجبي سؤالك.  
 فدهت عني، فقد اشتقت إلى الصمت!

بيروت سائسة حافلة بيوم آخر. غداً تحمسي قتلها  
 وجرحاها. وتعددت على هدير الصمت الصمت كليلي  
 كوي مشحون بوحشة برئة، يعلو ويهبط صدى لصدى  
 خللاء السماء من عواء العرلاد. كأنك تسمع قطرات الماء  
 تُقططها خسعة غير مُحَكَمَة الإغلاق. أو تصغي إلى  
 خطوة تتقدم من الباب ولا تصل أبداً. للصمت نعمة  
 الجبران، ووشاية العراع للعراع. وللصمت صوت العتمة

التي تنساب وتنساج بهيئة جيش سرقي المواقع. وللصمت  
 هميسش حاشية تتطالع إلي وظيعة حاسة أخرى بين  
 النوم واليقظة. الصمت ثأنة ثرثرة بين عناصر لا تنفس  
 الكلام. الصمت ما يشاهي إليا من فقهة عاصفة بعدما  
 أدت واجبها العشي بسجاج الصمت طنين يحول عرفة  
 النوم عابة أشباح.

تصرخ وتصرخ كي تكسر هذا الصمت الملحاح بصمت  
 أعلى، فيدحر الصمت ثم يعود إليك مستعياً بطاعوت  
 الأرق، فتوقد شمعة وترشد الصمت إلى باب الخروج. من  
 هنا... من هنا تمضي وتصل إلى مفرك الدائم. صمير  
 العالم، فيطيفك ويمضي مخلعاً لك الأرق... وتلك مسألة  
 أخرى بسببها سوء التفاهم المتبادل بين الوعي وأعضاء  
 الجسد، وسوء الفهم الدائم بين الواقع والخيال لكنك  
 اعتدت حلها بالمراوعة، إذ قلت للواقع: أنت للخيال  
 الوحيد، وقلت للخيال: أنت الواقعي الأكيد

ومنت همت بجسلك وهام بك. تعب شهوي الخنفر  
 يلجلك شتاً شتاً. ويرقرق عليك سرب من السوارس  
 المتراخمة على شيد البحر للسفن تشيد شحي يلتفت  
 إلى الوراء، إلى يابسة تبتعد وإلى من يبتعد كنقص رائد

دونه شعب رائد لا كتاب له على اليابسة فجأة، تحلج  
 البورس ياصها وترمد وتسود، ويشتد سوادها وتصر إلى  
 جوارح تنفض على أطلال يامون في العراء، تخطمهم  
 بحالب مقلوبة، فيصرخون من الهلع والوجع، ويصرخون  
 ويصرخون ثم ينوقعون عن الهلع والوجع والصراخ في  
 بطن الوحش.

يضربك الكابوس بقبضته الحديدية فتصرخ بلا صوت.  
 تنفد أعضاء جسمك التي قطعها الكابوس بمهارة جزاء،  
 فتجد لها سوية سليمة لكنها ترنح وتصرخ من أثر الدبح.  
 تحاول أن تنهض من السرير لترى أين قُلت، فلا ترى دماً  
 في الغرفة. تبحث عن وجهك في المرأة، وعن قدميك في  
 الحذاء، وعن يدك حول كأس الماء، وعن قلبك تحت  
 القميص. وتأكد من أنك حي، أو ميت وجد نفسه حيّاً،  
 من أثارك لا من حياتك /

أنت والعجر وحيدان. وحيدان أنت والعجر في الشارع.  
 القُرْء معلق والبيعة غائبون والأبواب موصدة. لا ققط في  
 الشارع المزدحم بأكرام القمامة. والشجرة الوحيدة واقعة  
 وحدها على باب البايّة، لاستقبال العجر المبشر بأبدية لا  
 تعني أحداً في هذا الوقت الرائد. أنت والعجر وحيدان

عربان اجتماعاً عنوة، دون أن تجمعهما ألفة ولا فضول. لا تدري إلى أين تمشي، لكسك تمشي على شطآن سابقة ريشاً يذلق العجر ررقته الكحلية ويصرف. وتعرف بأنك أخطأت، ماذا برلث عن الكرمل، ولم أكمل رحلتي مع إخوتي إلى البحر... إلى ما لا أعرف؟

تري ذهبةً عملاقة في منتصف الشارع، فلا تدري إن كان عليك أن تعود الفهقرى أم نواصل السير كألك لا ترى ما ترى تنظر إلى الساعة كألك على موعد، وتمشي بخطى تسابق دقائق قلبك إلى لا هدف، فلا يكثر بك الجسد إلا حدودون بمتعة التعرف إلى أول عاصمة عربية يعرونها. متعلم من الإداعات أن ليل صبر، وشاتيلاً كان مصاةً كُنه، لينظر القشة في عيون قتلاهم فلا تعرفهم لحظة بشوة على موائد الذهب، وستقرأ ما سيكتبه جان جوييه:

دما لها من حركات ومآذب فائرة تلك التي أقيمت حيث كان الموت يبلو وكأنه يشارك في مسرات الجسد المنتشبين بالخمر والكراهية. ولا شك أنهم كانوا منتشبين أيضاً بكونهم قد نالوا إعجاب الجيش الإسرائيلي الذي كان يستمع وينظر ويشجع ويؤيخ المترددين إنسي لم أر هذا

الجيش رؤية العيون، غير أنني رأيت ما فعله. إن قنلة قد  
أنجروا العملية، لكن جماعات عديدة من فرق التعذيب  
هي، في غالب الظن، التي كانت تفتح الجماجم وتشرح  
الأضداد، وتشر الأذرع والأيدي والأصابع. وهي لشي  
كانت تجز، باخبال، مختصرين معاقين، رجلاً ومساء  
كانوا لا يرانوا على قيد الحياة. حملة وحشية جرت  
هناك. سحر، بشوة، رقص، غناء، نداء عويل، تأوهات  
... على شرف متعرجين كانوا يضحكون وهم خالسون  
في الطابق الأخير من مستشفى عكا.

لا تستطيع اختيار منطقة الأكم، ولا الوصول إلى مصدر  
الكابوس، لتكون شاهداً على تقطيع جسدك والنظر عميقاً  
في عيني قاتلك الذي تعرفه جيداً. ولا تستطيع الكلام إلى  
أحد، فقد خلا العالم، خلا تماماً من الأحياء، واكتظ  
بالقتلى الذين ودّعوا أمس إخوانهم وحراسهم المبحرين  
على سفن يونانية الصنع، طرادية الدلالة لم يكمل  
القتلى عملاً من أعمالهم. لم يسهوا عشاءهم، ولا  
صلاتهم، ولا كوايسهم.

وتجسّبت البلاغة، فهي في غير موضعها صرب من صروب  
المشاركة في التعذيب وهي السيادة ذات الحصانة



الدبلوماسيّة، التي هزّبتك من بيروت إلى دمشق، قال لك  
 السعيرُ الدييّ لو عرّمت جزءاً مما أعرف، لكفرت بالدعة  
 الحرّية. قلت له: شكراً، وشرفْتُ بأحرف العُلّة. لم تبك  
 هذه المرة.. لأنّ البار والشمع لا يجتمعان في عيون واحدة  
 وفي عبارة واحدة. وحين دخلتُ إلى حُمام مطعم على  
 شاطئ طرابلس غسل يديك، ونظرتُ إلى المرأة، رأيتُ  
 وجهاً لا نعرفه. كان أنماً كبيراً يحمل نظارة طبية، ولا  
 يشبهك!.. لكنه وجهك.

إذا كنتِ أنتِ أنا، وأنا أنتِ يا

صاحبي، فلما موعدُ مرجأ

في الأساطير. أيّ طريق سلك؟

قلتُ. الطريقُ طريقُنا في الكلام عن العدد. قلتُ لك.  
 الرحلة ابتدأت. قلتُ: كم مرّة مشقول لي الرحلةُ  
 ابتدأت؟

قلتُ: لا غد يبقى على حاله!

قلتُ. لكنه لم يصل

قلتُ: مرّ بها ومررنا به ذات يوم ولم نتبه

قلت: كم مرة ستقول لي الرحلة اجأت؟

قلت: إن القصيدة ماقصة..

عريفك هذا. فاعترف به كما يلحق بشاعرٍ يُتقَرُّ الرُّحُّ بنفسه  
في الشَّبه: كم أحبُّ الخريف. ونَجْرُ المكان يرسِّي العبارة،  
قبل أن يركلك الوقتُ إلى هاويةٍ عالية. حُجْرُهُ . . حُجْرُهُ  
بكل ما هيك من مصحح خسارة، وانتماء على حذرٍ يتلفت  
إلى شُلُوِّ الجهات من اليقين.

هذا الخريف لك، ولك ما تستغي عنه الأشجار من ربة  
ورقةٍ ورقةٍ وما من ربة لك غيرها، وأنت تتفاوى في  
الدخول إلى قاعات فارغة تدقُّ البلاءُ دَقًّا تُسمعُ بمسكٍ  
صوتِ خطواتك عالياً عالياً، بلا سبب. كأنَّ الوقتَ كُلَّهُ  
يومٌ أخذ . . ما من أحدٍ يصحو، الساعة، ليتأكد من أيِّ

شيء. وفي الضوء على الأرصعة ثقبوب مقصية كحروف  
من لمة لم تدؤ بعد. وفي الورد المطمش في المربعات مرج  
يُخَوِّمُكَ وَيُسَلِّمُكَ، تَهْنَأُ وتَأْمَلُ في ما يسبك المقارة  
الجاهرة، وأرخ رس المسك قميلاً، فالذاكرة هي أيضاً في  
حاجة إلى ما يوثق عوصاهها، فزجاً فزجاً في هذا  
الخريف.

هذا خريفك من أوتة، يشر رائحة مفي فائقة، ورسائل  
فارقة، فلتشأها بالأصغر البني الذهبي السحاسي المرسل  
إلى اشتغافات اللون، غير المترددة، من أوراق تأخذ وقتها  
الكافي في وداع الشجرة، إذ لا ربح تهب اليوم. وأنت،  
من فرط ما أنت وحيد، لا تفكر بالوحدة. ولأنك لم  
تودع أحداً، من البارحة، لم تكثرت لظلك وإن كان  
يمشي أمامك أم خلعك الهواء خفيف، والأرض تبدو  
صلبة.

ولست تلك، كما قالوا، إحدى صفات المنى /

هذا هو خريفك الخارج من صيف حار، من فصل كومي  
الإجهاد، ومن حرب لا تظهر لها نهاية. خريف يصح  
عنت الجبال العالية المسي خريف بعد لاجتماعات كبرى  
يراجع فيها مجلس الآلهة القداسي مستودت مصائر ما

رأيت قيد التأليف، ويختلفون ويشتقون على هذنة بين  
الصيف والشتاء. لكن خريف الشرق قصير، يمر كنبوينة  
يد سرية من مسافر على حصار إلى مسافر على حصار  
في اتجاهين متعاكسين، فلا يحول أحد على خريف كهذا،  
على عواصف من عمار .. وعلى رواج منة

أما الخريف هنا، خريف باريس العائدة من إجازتها  
الكبرى، فهو انكباب الطبيعة التي أعودها المطر على كتابة  
أشعارها الباذخة بكل ما أوتيئت من مهارة وسيد يتخضر.  
خريف طويل طويل كعقد رواج كاثوليكي لا شيء بما فيه  
من صعادة أو شقاء لعابر مثلك على المشهد. خريف طويل  
البال. حلاق يروسي بين الضوء والظل والأشجار والذكر،  
وبين سماء تنخفض باحترام على شجر يتعزى بكرامة،  
أمام التباس العوايات بين قطرات ضوء يقطر، وبين قطرات  
ماء يثقل ويشرق. . خريف يتباهى. خريف يتباهى مع  
أوائل فصول ثلاثة: حروي الصيف، وجماع الشتاء، وفتوة  
الربيع

وأنت، أنت تمشي خفياً على سطح هذا النهار الخريمي.  
تشمش وترتمش وتدهش: «أني مثل هذا النهار يموت  
أحد؟» ولا تعرف إن كنت تسكن الخريف أم هو الذي

يسكنك، حتى لو تذكرت أنك الآن في حريف العمر،  
حيث يُثَقِّلُ العقلُ والقلبُ الإصابات إلى الرمس بتأغم  
التواطؤ بين المتعة والحكمة. ليقاع بيل يرفع أجسد إلى  
مرتبة الانتباه لما يقصر، فيرداد امتلاء بما يعد إليه من  
جماليات الصحو والعميم. ويستعد، كغز صيد بجوئي، لرصد  
المسح المساسب لحوار عابر: هذا السهار جمهل، ألمس  
كذلك؟ إذا كان الأمر كذلك فلماذا لا نحسني القهوة  
معاً؟ لرائحة القهوة أبواب تمضي إلى سفر آخر. إلى  
صدقة، أو حب، أو إلى صباغ لا يؤلم... فتثقل القهوة  
من الاستعارة إلى الملموس.

إبقاع سري يقود التجربة إلى دهاب ألفسى.. إلى لقاء  
بين خريف يترنؤ في المساحات مع الجميع مع الناس  
والخمام، وبين خريفك الخاص بك، خريفك المؤني.  
وتتساءل كما تسأل غيرك «هل نحن ما يصنع بالرسم،  
أم نحن ما يصنع الرسم بها؟». لا تعيك حيرة الإجابة فتر  
ما يهيك تخفيف السرعة. لا تتردد لهذا الخريف أن  
ينتهي، كما لا تتردد للقصيدة أن تملأ فتنتهي لا تتردد  
بلوع الشتاء. فليكن الخريف أهدئك الخصوصية.

وليس تلك، كما يقولون، إحدى صفات النعمى ! /

ليس المنعى سمرًا، دهايًا وإيابًا، وليس إقامة في حين. فقد يكون رهارة، وانتظاراً لما يعمل بك الرمس، وخروجاً من الدات إلى غيرها للتعارف والتألف أو لعودة الدات إلى الصدقة لكل معنى طبيعة ولكن معنى طبائع. في المنعى تدرج على التأمل في ما ليس لك، وإعجاب بما ليس لك. فاسمى يهذب الجسد، يعضد جمال الشكل، ولو كان المعنى ناقصاً، فالكمال هو وعي النقصان. تماثيل تمجد الماضي وتماثيل تنوب للفقر عن عاطفة الهوية إلى هوية العاطفة، وتماثيل تحرر العبد من المحاصيات وتحرر الطبيعة من نظام المحيلة الصارم. الجمال هو الغلو. لكنك تمحاز، لأنك رمي التكوين، إلى الأشجار التي تنعكس في ماء المهر، وإلى الحمام البر - جوي، وتتوقف طويلاً عند موسسة بيت، وحدها، خارج الأحواض... لا لأنها مثلك عربية بين الأرها، بل لأنها تعتمد على نفسها في مؤبلا رعاية. ألمع سمر الشاعر في قصيدة، سمر داخل السمر، لكن اللغة المجارية تلت إلى الورا.

والنظر إلى الورا، يقولون، صفة من صفات المنعى /

إلى أين أعود؟ نساءت وأنت نعلق لوحات على جدران  
عمراتك الجديدة، وإلى أين أذهب؟ كان الأمام مؤقتاً.

وكان الورد الطاعم في المؤقت مُبَشِّشاً. وكانت الأهدية الطالعة مع الضوء من الحديقة تفهقه مازِخَها قائلاً: أبت أبصاً مسمى وتساءلت: كم من مسامير دَقَّقْتُ على جدران بيوت أخرى؟ وكم من لوحات غَلَّقْتُ، وكم من أسرة هجرت لييام عليها غيرك، وكم من مُسْتَوْدَآت ومطالغ سميت في أدراج أخرى، وكم من مصور ساء ضاعت في طبات كُتب لم تقرأها. وكم مرة قلت كم مرة أسافر، أو أهاجر، أو أرحل؟ دون أن ينصح الضاري في مصورك بين السفر والهجرة والرحيل، من كثرة ما تنسج المفردات لوهم المترادفات، ومن مرط ما تنعصر الاستعارة للتحويلات من «وطني ليس حقيقة» إلى «وطني حقيقة»

وفي الشقي تحتار حيرة لترويض العادة، حيرةً مخصوصياً ليوميائك، فتكتب. ليس المكاد هو الصبح / في وسعنا أن نقول: لب شارع جاسي هنا / وهرهد / وبائع خبز / وممسلة للثياب / وحانوت تباع / وركن صغير / ورائحة تنذركم...

المدن رائحة. عكا رائحة اليهود البحري والبهارات حيفا رائحة الصنوبر والشراب المجلجلة. موسكو رائحة العود كما على الثلج القاهرة رائحة المانجو والبرجيل. بيروت



رائحة الشمس والبحر واللحان والليمون. باريس رائحة  
 الخبز الطازج والأجبان ومشتقات العتة. دمشق رائحة  
 الياسمين والعواكح المجمعة تونس رائحة مسك الليل  
 والملح الرباط رائحة الخاء والبحور والعسل. وكل مدينة  
 لا تُعرف من رائحتها لا يُقُول على ذكرها. وللسمامي  
 رائحة مشتركة هي رائحة الخبز إلى ما عداها. رائحة  
 تذكر رائحة أخرى. رائحة مشققة الأنفاس، عاطفة  
 تفقدك كحارطة سياحية كثيرة الاستعمال إلى رائحة  
 النكاح الأول. الرائحة داكرة وعروب شمس. والعروب  
 هنا تويخ الجمال للعرب.

وليس محب العروب، كما يقولون، صفة من صفات  
 الشفي /

تُدخلك الذاكرة، وهي متحكك الشخصيتي، في محتويات  
 الصانع... في حقل موسم وحواس حتى وبعاء. وفي  
 قرص شمس يتهاوى في دخول البحر. يكبر الصانع فيك،  
 ويكبر في هذا العروب الذي يضعي على البعيد صفات  
 العرروس، ويُثقي من كل سوء. فكل ما هو مفقود معبود.  
 وهو ليس كذلك!

جُرْ لكان إذا برسن العيارة، واحمله كما تحمل اسمك،

لا ظلك، في خيالك لا في حقيقة. الكلمات هي وحدها  
 الشؤم هذه في هذا العروب لترميم ما انكسر من رمان  
 ومكان، ولتسمية آلهة عملت عملك وتخاصمت حروبها  
 بأسلحة بدائية الكلمات هي المواد الأولية لبناء بيت.  
 الكلمات وطن!

صنع قمراً على كل صمصامة، وفتاة على كل نافذة،  
 وعراً على كل بيع. ودع القصيدة تبي الجهة المحبوبة  
 من العدم. إن أوجعت المعنى ولم يقتلت أرجعتك إلى  
 مهد الخيال وفؤاك وساواك بمن يسهرون على تدجين  
 العاصف. والمعنى، وهو سوء تعاضد بين الوجود والحمود،  
 هو جسور عبور الحساسية بين الصور، وهو اختبار لقدرة  
 السرجس على الرهو والنواصح معاً، ومناظرة المختلف  
 للمختلف، ومُجَانَّةُ الشيء لشيء. فليس كل ما بينك  
 هنا يحتضنك هناك. وليس كل ما تشبهه هناك يحتضنك  
 هنا. فدع للخيال ما للخيال: حرية الكلمات في إطاعة  
 العواطف.

لكن إعلال العاطفة — يقولون — ليس من صفات السفي /

فلتصقل المسافة بكفاءة المحترف الماهر، لا بهشاشة المشتاق  
 الحائر، فليس شعر المعنى ما يقول لك المعنى، بل ما تقول

به أنت، نذاً ليدّ المنعى هو أيضاً مصياف الاختلاف  
 والاختلاف فتتصعنعك من نفسك ولا تسر أن  
 تشكر المنعى بشهادة سأمحك، أيها المنعى، حيث يليق  
 بك المديح هناك .. تحت شجرة النوى التي تستضيئني،  
 عند بيت أمي، عابراً في خريف عابراً

عاديّ يومك. العجم رماديّ يهمل ما تقرأ عليه وما تكتب  
من خواطر، ويكمل جملةً موسيقيةً بعدةً بعدةً في مكان  
ما و زمان ما. تشعل الضوء صياحاً لثرى القاموس الذي  
تفشحه عشوائياً على كلمة ما تُجْري عليها تدريبك  
الذهبي. وبمرحك أن تعرف أنك لا تعرف. تصطح  
أخطائك اللغوية، والماء يغلي في المطبخ. تصع القاموس  
جانباً، وتمشي إلى المطبخ. تشرب كأساً من عصير  
البرتقال البارد. يُعشك السكرُ الحامض، وتحس بتثاير  
عافية يسري في العضلات وفي المعنويات. تصع قهوتك  
طبقاً لتقاليدك الصارمة، ولتعاليم ديك الهال. تعود إلى  
القاموس وتحفظ أبياتاً من الشعر مصاحبةً لتنوع استخدام

الكلمة تنجعه نحو الباب فلا يفتح تسي أنث قد  
 سحبت المفتاح من القفل ووضعت على الطاولة فأنت  
 تعمل ذلك منذ فترة طويلة، منذ مات صاحبك في عرفة  
 معلقة. تبقى القفل جاهزاً لاستقبال مفتاح آخر تحتفظ به  
 مُدبرة المنزل التي تأتي في منتصف النهار. فقد تموت ولا  
 يفتح الباب، فتبقى أنت والموت وحيدتين في الداخل. يا  
 لها من حاطرة خبيثة: تريد أن تفترج من امرأة لا وظيفة  
 لها إلا إعلان موتك! يا لها من أنانية! وبأله من حُب  
 يرف السعي للمعي. تشرب فسجان قهوة آخر. ثم تجمع  
 البريد الملقى خلف الباب. تفتش الرسائل على عجل.  
 فاتورة الهاتف، صريخة التلفزيون، أجرة الشقة، فاتورة  
 الكهرباء، إعلان عن موسم تبرعات للمسجد الفارسي،  
 إعلانات عن تحفيس في أسعار السفر إلى جرد نائية،  
 ودعوت إلى مزاد علني لأثاث من عصر لويس الرابع  
 عشر، وإلى معرض مجوهرات. تتبسم: لا شيء يعجبني  
 ثم تدير زر الراديو لتستمع إلى بشرة الأخبار: ثلوج  
 ومثلقات، ثلوج وإصرابات، ثلوج وموتى من المسوى لا  
 تلج في شرق المتوسط، فلا خبر. تطلق الراديو وتخصي إلى  
 الحمام. تمسك إلى وجهك في المرآة لا جديد سوى  
 ارتفاع السحرة إلى الحاجبين. لا عدو أقوى من الرمن،  
 ولا خصم لك أبيل من المرآة. كان الرمن، فيما مضى،

يمضي بطيئاً كملة. وكما نستحيه: عجل بها! فلما موعد بعد ساعة، فلا تستجيب عقارب الساعة لحرير دما الساخن. كان الرمز كسولاً كشلبيد نحامل، ثقيلاً كأستاذ كان يحرصنا على التألف من بطة العد، ولا يحرصنا نظرة إلى الماضي، إذ لم يكن للفتوة ماض بعد. وما أن أنفتحا قرية الكتب الصعبة، ودخلنا في التجربة، حتى تحولت حكمة مطبوخة في قذر الرمز، مطبوخة كوعل برقي يحتاج إلى توابل يجمعها الأطباء من تناولها، فقد تأخرنا عن الوصول إلى الوليمة في موعدها الصحي، ودخلنا في سباق غير متكافئ مع الرمز الذي يقود مركبته العصبانية بأقصى سرعة. وصبرنا نستمله: أيها الرمز انتظرا! فلما موعد بعد شهر، فلا تسرع... لا وقت كافياً لانتقاء الكلمات اللاتقة بالمرأة الناصجة وخجر مقعدين في لأوبرا، والتأكد من أن أحداً لن يُقتل ببطء عنا، من مرط الشبه بين المارة على الليل، ولا وقت كافياً لبم لمراجعة ضرورية لأسماء العاطلة في موسوعة المتردات. ونقول للرزم أبصاً: لا تلتهمنا قبل أن نصير النهر وسطر من الصعة الثانية إلى المقاعد الخشبية التي تركها خلفنا، على الصعة الأولى، نظيمة لاستقبال عشاق آخرين سيظفرون إلينا ونحن سطر إليهم قائلين: كانوا مثبداً، فهل نصير مثلهم تحذق إلى وجهك في

المرأة. تصع عليه رغبة الصابون وتشرع في الحلاقة. تبدأ من الجانب الأيسر، من أسفل السالف مروراً إلى النفس، ثم من تحت إلى فوق. تفتح حمية الماء الساخن لتنظيف ماكنة الحلاقة، وتياشر الحمية دائها في الجانب الأيمن. تواجه صعوبة في حلاقة العنققة والساقين. وكالعادة تسول قطرات من الدم، فتصعظ على المرح الصغير بههامك، ثم تنظر إلى المرأة برضا من يتناسى محائلة الرمن. تشعرى، نعطس في حوص الماء الساخن، تدعب فقاعات الصابون والرغوة الملونة كقوس قزح دالب. تفرك أعضائك عصواً عصواً بمنابة فائقة، كأنت أم تحم طفله. ويحلوا لك أد تعنى، يبقخ الصدى بشار اللحس وتطرب... وتعجب من ارتباط الماء بالعداء، صوت اداء إيقاع. ولعل الموسيقى هي انتظام قطرات ماء في روح تتجلى بيد العازف على آلات مصنوعة من مادة مائية عاطفية. تطف إلى عرفة النوم. تفتح خزانة الثياب. ترتدي ملابسك الداخلية البيضاء ثم قميصاً أزرق وبسملوباً كحلياً وجوربين كحليين [لا تمير بين الكحلي والأسود] وتتعل حذاء أيقاً أسود [الأناقة تبدأ من الحذاء]، وتمشي إلى موعدك الصباحي... إلى العاصم، إلى الهواية التي صارت حرفة، والحرفة التي ظلمت هواية صجان القهوة على مسار المكتب، وعلية الأقلام على يمينه قرب دواة

الحبر الأسود وفي الوسط أوراق بيضاء ملأى بكتابة  
 بيضاء تاديك وتاديها، وفيها ما فيها من ذاكرة السابقين  
 المشحقة وأنت وحدك بلا معنى وبلا صمان، تحول أن  
 تعثر على سطرِكَ الخاص بك في هذا الرحام الأبيض  
 المستدام بين الكتابة والكلام. لم تعد تسأل: ماذا أكتب،  
 بل كيف أكتب؟ نندعي حلقاً فبعض من الصورة، ونناشد  
 معنى يضيّق به الإيقاع. وفي ظنك أنك قد تحطّيت  
 العتبة الفاصلة بين الأفق والهاوية، ونزّيت على فتح  
 الاستعارة لعباب يحصر ولحضور يغيب بتلقائية تبنو  
 مطيعة. وتعرف أن المعنى في الشعر يتكوّن من حركة  
 المعنى في إيقاع يتطلع فيه النثر إلى رعوية الشعر، ويتطلع  
 فيه الشعر إلى أرسقراطية النثر. نخدي إلى ما لست  
 أعرف من صفات النهر.. نخدي. جملة موسيقية كهذه  
 تشق طريقها في مجرى الكلام، جسيماً يتكون، ويكون  
 ملامح صوت ووعداً بقصيدة. لكنها في حاجة إلى فكر  
 يقودها وتقوده في مساح الإمكانات المفتوحة، وإلى أرض  
 تحملها وإلى قلق وجودي وإلى تاريخ أو أسطورة. السطر  
 الأول هو ما ستمه الخائرون، إزاء مصدره، الإلهام أو  
 الإشراف والباقي عليك وحدك عليك أن تجد الباقي  
 وعناصر البناء الكفيلة بهيب الشعر، شعر الحياة، في نظام  
 القصيدة. فسد هبط عليك السطر الأول أصبحت أنت



الصانع الماهر والشاعر إن حاله لك الحظ وأدر كنت الخطأ.  
 ليس أشعر محاولة ما لإصلاح خطأ؟ تترك المكتب  
 مطمئناً إلى أن صباح الغد سيوفر لك عملاً ما دام السطر  
 الأول في انتظارك تناول وجبة الغداء مع كأس البيرة،  
 على وقع جيتارت جُثت على طريق الأندلس. ويحببك  
 أن تظر أن العجم الرمادي ذاكرةً موسيقى مشحونة. تستند  
 في القبلولة نصف ساعة لا أكثر، نصف ساعة تكسر  
 روتين النهار وتهذي دقائق القلب. تستيقظ بشيطاً  
 بعداً، وتقضم تفاحة أو أجنحة على عجل، وتذهب إلى  
 موعدك بعد الظهر. تصل دائماً قبل الوقت بعشر دقائق.  
 تختار مقعداً قرب الحائط الزجاجي في مقهى غير مزدحم.  
 تنصفح الجرائد التي لا تقرأها في الصباح. تنظر إلى  
 الساحة المزدحمة بالمشاة والطيور الجريئة. تتأمل مشي  
 النساء: مهن من تمايلت، ومهن من تثاقفت، ومهن من  
 تهدأت، ومهن من تبادت في إيقاظ البرق بين الساق  
 والساق ثم تستهني بالسطر إلى أشجار الجور الباسقة  
 السامقة تتشرب قطرات الصوء. وتحس بيد ترتبت على  
 كتفك. تعانق صاحبك النحات الذي يهتدك: هذه آخر  
 مرة أرشحك فيها للمخلود تصحك من نواصحه ومن  
 المخلود معاً. ألم أقل لك إن المخلود غلب أعمار المتفكر،  
 وبرشوة يعرضها الماكز على تاريخ أمكرو؟ يتدخل المادل

وهو يصنع فجاد القهوة: الخلود ورقة يانصيب رابحة مات صاحبها قبل إعلان النتيجة بدقائق. يسألك السحبات. ماذا ترفعه أن أصبح لك تمثالاً صغيراً تصحه إلى جانب ألبوم الصور. تقول له ليس عسدي ألبوم صور ولا أرشيف. يسأل بدهش: وإن كنت فأين سيجدوك. تقول. في قبري. يلمح بالسؤال. لماذا ترفعه التمثال؟ تقول. لأنني أريد أن أتحرك ... أن أمد يدي لأكثر الذهب عن وجهي، وأن أمد لساني ساخراً، وأن أترن بجلي إلى الشارع. يقول. نقي بي، سأجعل الحركة مرثية. تقول. ولا أريد أن يكسرني أحد. أنا من يفعل ذلك. والتعشعش غير قادر على النقد الذاتي. يقول لك: أنت بدأ حمار تقول كخودك هذا. تفترقان بموجة. تعود إلى شقتك ماشياً لا على أربع، لأنك لست حماراً تبحث في التلفزيون عن مباراة كرة قدم، وعن فيلم بالأسود والأبيض، ولا تجد تنتظر مكانة من امرأة غصبت منك لأنها اختبعت معك على تعريف الحب. تقرأ حتى منتصف الليل. ثم تضع رأسك على المحلة وتستعرض يومك. هل نسأت إلى أحد؟ وتنام على سطري:

خذني إلى ما كنت أعرف من صمات البهر، خذني!  
خذني إليك ...

تحبُّ اليوم ... البقطة المضي عليها كحالت هــ. اليوم  
سيد وسلطان. وأنت، بالأم، سيد نفسك وسلطانها. حتى  
بلا نكائيف حياة. حتى في موت مجازي الشفق بعناية  
ملاك، نصير المسد على راية الامرئي بهيئة اللائق  
باللائق. المائم لا يكبر في اليوم، ولا يحاف ولا يسمع  
أنباء تعصر العلقم في القلب. لكك تسأل نفسك قبل  
اليوم. ماذا فعلت اليوم؟ وتنوس بين ألم النقد ونقد  
الألم... وتدرجياً تصفو وتغفو في حصنك الذي يملك  
من أقاصي الأرض ويضئك كأنك أمك. اليوم بهجة  
السيان العليا. وإذا حننت، فلأن الدائرة تدكرت ما  
نبيث من الغامض.

تسام، وتعلم أنك تسام فيمرحك اليوم وتمدح الكسل،  
صديق اليوم والمواهب. ولا يهتك أن يطيل اليوم عمرك،  
بل يهتك أن يطيل العمر موتك. اليوم صياغة الأبيس  
على الحواس، وارتياذ الأرق أرض السطلي بلا مرشدين  
وكهنة وصوميين والسامون سواسية على الرغم من  
اختلاف الشؤر والسرائر. لكن اللحظة هي التي تعرف بين  
المائمين، وتجرحهم إلى حروب ما قبل اليوم وبعده لو دام  
العالم أكثر لصارت الفوارق أقل.

وأنت نائم تعلم أنك نائم فتتوغل في النوم، وتنشئي  
بسحابة دافئة تحتضك وتحتضها، طائر بلا موعد وبلا  
مقصد غير هذا العناق المجاني. جناحك الأيسر لك  
وحده، والأيمن أيتها. يوقظك شخيرك ليذكرك بما أنت  
فيه من نعمة إلى مزيد من النعمة. أنت نائم. قد تسي أين  
أنت ومن أين أتيت ومتى وصلت، فتشعل ضوء المصباح  
وتعلم أنك في أرض اليوم، فتشكر خفة الريش المباركة.  
وتعفو غير أنه بشعاع يتلخص عليك من الناعقة، وغير أنه  
يصخب الشارع فالوم، معافى، لا يُعصي ولا يُتصر.

لكمك ترى اليوم وتسمعه وتشم روائحه وتدوق نكهته  
وتلمسه عسراً عضواً ونام وتعلم أنك نائم وأنت مرغل

في سمر بلا طروق وخرائط وعساوين، في نرهة منزهة عن  
 أية عاية. تعادر العالم، عالم الأشياء والكسفات وما يفرق  
 بينها، ويجمع في ساعات الليل، كأن الليل سرير  
 وتعجب لمن جعلوا الليل نهاراً والنهار ليلاً. السوم امتلاء  
 الجسد بالطمأنينة والسكينة، وخلق الدهن من الرعب  
 والصجر. لا ضجر في السوم ولا خطر. هو حاجة الصحو  
 إلى غيبوبة قريبة من تشبه الشيء بشبهه العائب، وتشبه  
 الهولة إلى آثار الوقت السطية فيها، إن لم يعطل الساعة.  
 السوم يوقف الوقت عن العمل. ثماني ساعات، ثماني  
 ساعات بالمة لا أقل. فإذا نقصت لسبب ما، كأن يوقظها  
 رنين الهاتف أو جرس الباب، كان ضحكك دالخاً ومشوباً  
 بالكمد. كأن الأرق الذي لم يُبَيِّنْكَ في الليل قد أمسك  
 بتلابيب النهار كله.

كم كُنتَ تَحْقُقُ الأرق! لأنه يستعصي على المحاور،  
 عيب شديد المراوغة سعيد بقدرته على المداورة كلما  
 جاملته ازداد ثرثرة واستيمالاً على وجه الجسد العاجز عن  
 شرف المقاومة أو راحة الاستسلام، واستعان عليه، ليدلّه،  
 بتسلط الوعي على الحواس. الأرق ضئيف ثقيل محلّ  
 عليك بلا موعد. يحرمك من السوم ومن اليقظة معاً.  
 الأرق طين بعوصة، وصراع تخفي على الحاف ومحنة

وركتين وأنت الذي تُقتلح عُثْوَةً من جسدك وتُعَلِّك إلى  
جسدك الأول مُخْثَرًا مُتَّهَدًا لا تجد وصعاً لعداب الخنْزِ  
إذا ما طال وصحاح. والنوم، إذا تدخَّل الأرق لا يُعاوِض،  
كالوحي لا يُعاوِض، وكأني عصو بأبي الاستجابة لا  
يُقاوِض.

تحاول أن تفتش جسدك العالق بين المعاس والبقطة،  
تصعط على زر الصوء بصعوبة. وبصعوبة تفتح كتاباً،  
وبصعوبة تقرأ، وبسهولة تسي ما قرأت. تحاول أن تعلم  
بقطاً، أن تعلم بأنك نائم، فتنام وتعلم أنك نائم... ولا  
تُحلم كثيراً، مد متى لا تُحلم كثيراً؟ مد وَصَّيْتُ قُلُماً  
ودفتراً على طرف النوم لتدوِّن أطراف كلام حفيف الورن  
خفيف الدحس، بهبط عليك كحبيبات الندى، لا هو شعر  
ولا هو نثر، لا أرضي ولا سماوي. لكنه يطير بك وتطير  
به، فتصعو وتخف وتشف، وتسي في ممسى لا تعهمه.  
تستيقظ في الصباح مرحباً مرحباً كأنك تتعجم ما هبط  
عليك من نداء لا تتذكر منه إلا الرعشة التي تُمدُّك بطاقة  
إنشاد، فتدرك أن يومك هو امتداد حلمك. فأعرف —  
قُلْتُ لنعمك — كيف تُحلم.

ومد بصيت القلم والدقتر شزكاً لاصطياد الخدم جعل

الحلم من التدوين، ربما لأنه لا يرعب في أد بُكثبت أو  
يُطلَب عند الحاجة، فلا تتظره كما تتظر الوحي. سيأتي  
هو السيد كما يأتي الحب بلا استدان سيأتي هو السيد،  
حين لا تتظره، شفاعاً لتعرف أنك نائم لا ميت. وقد  
يأخذ بيدك كي تمشي معه في جولة تشعّد فيها أثار  
نفسك المسية على أرض معينة. تقول: أنا هو، وهو  
الظل... وتركض في ذكراك. وحين يراك الحلم على  
وشك الأشياء إلى خارطة الذاكرة يهرك أحد جناحيه،  
ويقلع بك إلى بساطين يرتفان مُعلّقة فوق العيوم، وإلى  
طير لا تعرفها، لكنها تحاطبك بمنطقها الذي تفهمه دون  
مكابدة. فتولد من داتك دات أخرى أعنى، وتختص  
الكون ويحتصمك الكون، فيصير داخلك خارجك،  
وخارجك داخلك. وتقول: أنا هو أنا!

تصحو في الصباح مُبلاً بندي يرشح من عناق الليل  
والنهار، وتسير إلى العد الذي فتحه لك الحلم بكنمات  
مبهمة، تأخذك إلى أعلى وأبعد من هذا القاع فادهب  
معها مع الكنمات، والصب بها لعبة البراعة والقصد.  
واكتب بها ما فاتك من أسماء وتوقاً إلى طيران يجعل  
الأرض أكثر استدارة، ثقاً تسقط إلى فوق، وتدور على  
نفسها ويدور الزمان معها، فليس كل ما كان سيكون،

وليس كل ما سيكون كان. فلا تشرب عليك إذا حدث  
خلل طارئ في هبوط الحلم عليك. فهو مثالي ومثلك  
يصاب بالحصى، فيهدي مثلاً بكلمات تحتك بكلمات لا  
تنتج عبارة، ويتواصل اللامعنى مع ارتفاع الحرارة.

وبأخذك الكابوس إلى مرتفع يُبطلُ على مرتفع بينهما  
هاوية لا يبلغ البصر قرارها. تحاول القفز من المرتفع إلى  
المرتفع فتسقط في الهاوية وتصححو على صراخك ابطل  
بالعرق. وبأخذك الكابوس إلى احتفال رسمي. وحين  
تصعد إلى المنصة تجد نفسك حائلاً عارياً دون أن تتمكن  
من السزل عن المنصة. وبأخذك الكابوس إلى امتحان في  
قواعد اللغة الصينية. لكنه لم يأخذك مرة واحدة إلى موت  
أكيد وإلى رواح طويل.

لكمك تحب النوم. وتحتي هينوس، إله النوم الإغريقي،  
وتنسى أنه شقيق الموت. تحب النوم... البقطة المعنى  
عليها كحالك هذا، دون أن تعلم أن يومك هذا قد راد  
عن حذره. ودون أن تعلم هذه المرق، أنك نائم!

طال نومك، فانهض وحلمك، وآرو لنا ما رأيت /



هل رأيت ملائكة يرمون على الناي ألحان مودارت / ولا  
يسكرون من الخمر؟ /

هل ذللك وهل أطعموك من العنب الشكري؟ /

وهل أحذوك إلى برهة في صواحي البساتين؟ /

هل كنت تشبههم عندما أنزلوك إلى المهر، طعلاً، كما  
كنت أنام رقتهم؟ /

من تغير منكم هناك، ومن قال يا صاحبي في الطفولة؟ /

هل يشبه النين نين ساجك؟ /

هل يشبه السخلم، حلمك، أشياء بيضاء خضراء، ررقاء  
تعرفها؟ /

طال نومك، فانهض واخلطك، وارو لما رأيت؟

«هل لموت يوم طويل، أم اليوم موت قصير؟» تأخرت هي  
اليوم... فانهض!

في يومك هذا ذكرى يوم آخر أحملها الآن بدلاً منك.  
 اخترق خبجز صدرك، فصرخت: في أي قلب أصبت؟  
 لم تسمع أحداً يذكرك بأن لك قلباً واحداً، فقد أغشي  
 عليك في ليل قبيها البارد. وعشت، لأن بدأ الهشة  
 أنشققتك. فلماذا لا تنهض الآن وتساكني: في أي قلب  
 أصبت؟ فأكذب عليك: من القلب المحمور على جذع  
 شجرة!

يوم أبهى يوم باهر كان يحملك كريحشة على غيوم  
 بهباء. - تخرج من جسمك وتسيح درة من درات  
 الكود. تخرج من نفسك ولا تلخل في شكل. تسبح

كما لو كنت تطير، وتطير كما لو كنت تسبح خفياً شعياً كأنك روحتك، خالياً من الماضي وخالياً من الحاضر، مُتزعجاً من الرمن والعاطمة. فلا أنت شيء ولا أنت لا شيء لكسك ترى كما لم تر من قبل. ترى الضوء أبيض والعيم أبيض والهواء أبيض. ولا تسأل أين أنت. لا أحد حولك ولا تريد أن تعرف إلى أين تطير ولا تحارب الطيور. كأنك صفة من صفات المسرة الكبرى مشوّز على قعر الراحة الأبدية. لا تحشى السقوط من علي، ولا تحشى الصعود إلى أعلى، فلا انحطاط ولا علوّ في اللامكان الدائري هذا. لا تُشبه بحمة خرجت عن مسارها وظلّت تدور في المجرة. ولا تتذكر متى خرجت من جسدك لأنك لا تتذكر أنك كنت في جسد. انجذرت بقاءً صيقاً بقطك كقطرة ماء في الأمن. هكذا خلقت قبلك في هذا العشاء الأبيض المنعش. وعذت إلى أولئك. تام ولا تعلم أنك نائم ولا تعلم، كأن الحلم هو اختراع المحرومين من السكنى في مثل هذه السماء. كأنك روحتك وقد أغتقت من أسر الرمن والشكل، وهامت وحامت وقامت إلى لا مستقر.

ثم صرخت، صرخت فجأة حين غدت إلى جسد مربوط بأسلاك وأجهزة في عرفة رمادية أين أنا؟ سألت، مهوك

عن الكلام. وعلمت فيما بعد أن صرخة الألم كانت دليل عودتك إلى الحياة التي تبدأ وتنتهي بصرخة. وسألت أين كنت إذًا؟ فقبل لك إن الموت قد اختطفك مدة دقيقة ونصف الدقيقة، وأن صدمة كهربائية قد أعادتك إلى الحياة. وفكرت هل كان الموت جسيملاً ومرعباً إلى هذا الحد؟ لا. ليس هذا مؤناً. إنه حياة من نوع آخر إنه يوم مُعافى. يوم كُلِّي الهساعة. وأدركت ما لم تدرك من قبل أدركت أن الموت لا يوجع الموتى، بل يوجع الأحياء. وفي عرفة العناية العالقة أدن لنا الأطباء بأن نحفل بعيد ميلادك.

فاصرُخْ، يا صاحبي، لأعرف أنك حي. واسألني لأكذب عليك. أنا حي مثلك. ناج من حادثة حياة بدت كالموت بمعناها فنجيهاها بفرح الداهيين إلى برهة. وبمعناها الموت فنجيهاها كما لو كانت غرواً بلا نهاية. وأنا مثلك على هذا اليرج. أصرخ لأعرف أنني حي لكسك لا تصرخ مثلي لأعرف أنك حي طالت خطبتي ولم تنهض. وعلي أن أنهي خطبتي لأتأكد بما يُثلي علي الموتى من واجب العزاء بمن ماتوا في هذه الساعات .... ولأتأكد بما يُثلي علي الحياة من واجب التهنية بمن وُلدوا في هذه الساعات الصرخة هي الصرخة في البابين: باب الدخول،

وباب الخروج أَمَا الخُفْم، فإنه يكتفي ببلاغة الوعيد من بعيد.

ومن بعيد نجىء القصائد، أشبهك ولا أكونك. وأكونك ولا أشبهك.

وفي نومك هذا ذكرى يوم آخر، أحملها الآن بيده عنك. قال لنا الطبيب، ابدلوا منذ اليوم بإعداد الجذارة. لم تصدق، فلم تسأل. أليس؟ لأنك لم تترك وصية. كانت باريس وصواحيها في هيجان الربيع. وكان الرداد يختلط بدموعنا. ألم يحتفل قبل أسبوع هنا بعيد ميلادك، حيث قُلتَ لنا مازحاً، لعلّه الأخير؟ ثم دخلت إلى غرفة العمليات بحماسة لم نفهمها.

تهدي. نصرب الهواء والأسلاك الطبية بيديك ورجليك، وتهدي. فيتدوك وخدرك وتؤموا الشور الهائج فيك، وظللت تهدي.

سرداب كقاع بحر مهجورة. تصرخ ولا تسمع صراخك. تحتق بدخان بشره خَلَقَ ما في جهاز التنفس. لكك تراه وتشمه وتحتق. يربطك تمزّص إلى صحرة وبها لالان عليك صرباً. ثم تنقلك حافلة بلا سائق إلى رمانة. تصرخ

ولا تسمع صراخك ترى إلى نفسك تمشي عارياً في الشارع تحاول أن تعطي عورتك بيدك فتسقط منك يدك. يتاولها أحد العبية ويرميك بها صاحكاً أهي مجنون تصرخ ولا يخرج منك صراخك. يسقط في رثيتك كالحجر. تسرع أحد الأجهرة الطبية، هيرن جرس الإمداد. يأتيتك الشجائن بهراوة عظيمة. تحاول أن تقول له شيئاً، فلا يخرج منك صوتك. تشير بأصابعك إلى أنك تريد ورقة وقلماً. تكتب. فقدت لحي!

حين تصحو من الهلوسة ونهضاً، تعلم أنك في المستشفى، فتسأل: متى يجرون العملية الجراحية؟ يقولون لك إنها تمت منذ أسبوع. تواصل قراءة «باب الشمس». يروك مؤلف الرواية وتناقشه في بعض التفاصيل وأنت صامى الدهن. وفي نهاية الزيارة تهمس له: بعد قليل، حين يثقل الحراس، خذني معك! هزبي من هذا السجن! لا تعهم ماد تدمع عيها، وما إن يودعك ويخرج حتى تسقط ثانية في قاع البئر المهجورة، وتصرخ: أخرجوني! فينهال عليك السجانون صرماً إلى أن يئس عليك.

كلما عادك رائر بنوت هادئاً في البناية. وفي نهاية الزيارة تروي قصة تعذيبك وتطلب منه التواطؤ على عملية

التهرب لم تعرف أنك في صراع مع الموت. بل كنت تحسب أنك في صراع على الحرية . حتى ظننت ليبي، ملائكت الحارس وأصدقائك سبيل وصباحي والياس وفاروق، أنك قد أصبت بالجور، فاتصلت بالطبيب في ساعة متأخرة من الليل لتسأله إن كنت قد جُئت حقاً. فطمأنتها إلى أن ما نراه هو هلوسة ناتجة عن جرعات التحدير العابية قاتلاً إن لا وعيه هو الذي يقاوم الموت. ولكن استعدوا لما هو أسوأ! وفكرت فيما بعد. أليهما أسوأ، أن ينتصر عليك الموت فتطير في رحلة الياس؟ أم أن تنصر على الموت بالجور تنسر في شوارع العظيمة؟

ورأيت العار لدي امترق من أمامك قبل عام، واعتبأ في عرفة السوم بحثت عنه في كل زاوية ومعطف وحذاء ودرج ولم تجده، فسمت في عرفة أخرى. وحين فتحت حقيبة الملابس في مدينة أخرى رأيتك يقفز من الحقيبة ويحتسئ في ما يشبه الهوس، فطلبت من إدارة الفندق استبدال العرفة بعمرها وحين عُذت من السفر وفتحت الحقيبة رأيتك يقمر ساعراً منك ويحتسئ في المروعة هل يطاردك العار أم تطارده؟ هل هو عار أم وسواس؟ هل تحاه أم يحاكيك؟ سرداب كقاع بحر مهجورة. وفار يقمر من هديان بحر إلى هديان بحر وأنت مشدود إلى صحرة

كصرخة مكشمة- لئني كنت هباك، في ذلك الموت  
الأول، عيمة بين العيوم ولم يسمعك أحد سواي.

ورأيت الشعراء ينصبون الفخاخ لصيد الحجل.

ورأيت الشهداء واقفين كل على بحمته، سعداء بما قدّموا  
للموتى الأحياء من أمل.

ورأيت رأيت رأيت بلاداً يلبسها الشهداء ويرتعون بها  
أعلى منها / وخياً وحياً. ويعودون بها خصراء وررقاء /  
وقاسية في تربية سلالتهن موتوا لأعشرا / فلا يعتدرون  
ولا يتنوّون وصاياهم لسلالتهم: أنتم غداً، فاحيوا كي  
سحباً فيكم! / وأجشوا زهر الزمان / وزهر اللبسون /-  
وضبوا حمرتنا في عيد الحب /! فلم يجد الوقت لشربها  
معكم / عموا! لم يجد الوقت /- فلا تنوّوا أنتم أن نحمدوا  
الوقت لنحتفلوا بالحب /، ونشفوا بالحب لنا ولكم /

تصحي إليهم إصعاء المديح للإيقاع. فتقع الجرّة من يد  
الموت وتكسر تلم الشظايا حرفاً حرفاً وتركب الاسم  
وتطلق. وتترك - حين تراهم يحملون أقواس قزح بحقة  
الصاعدين إلى أعلى - أن البطولة أبسط من وضعها. وأن  
ثمة مشاريع وراءهم - أمامك تتحرّون لاشتقاق المعنى من



العبث. وتترك، حين تسمعهم يُزْتَمون ما لا تفهم، أن  
الموت مجاز عامض أمام كثافة الوصوح في هذا الممر  
الطويل فتتخلص من سريرك وتلقأ من عافية الروح .  
وترحف ترحف على يديك ورجليك إلى الحشام، معتمداً  
على نفسك. وحين تسمع صوت الماء يحرخر في دورة  
المياه تعلم أنك حي. ونعيد الكرة، نسمع صوت الماء.  
الماء الماء الماء

ألا تسمع صوت الماء الآن. إنها تمطر!

الطير مسامرة الفائب للمائب، والتفات البعيد إلى البعيد،  
 الطير غطش السبع إلى حاملات الجرار، والمكس أهباً  
 صحيح الحين بهجر المسافة وراة وراة، كأن التطلع إلى  
 أمام، وقد شئني أملاً، خاطرة شعيرة ومعامرة فعل  
 المصارع حائر متردد، وفعل الماصي الساقص معلق على  
 منزوة وقعت خلف تلة، على ساقها الراسخة، والتفت  
 بأخصرها الماكس، وأرهعت السمع إلى صوت واحد:  
 صوت الريح. الحين هو صوت الريح.

وكلمة توغلت في وحدتك، كتلك الشجرة، أحمك الحين  
 برفق أسومي إلى يله المصنوع من مواد شفاقة هشة،

فللحين بلد وعائلة ودوق رفيع في تصفيف الأرهار البرية.  
وله رسم متقن برعاية إلهية، رسم أسطوري عاديء ينسج  
فيه اثنين على مهل، ويام فيه الظني إلى جانب لدثب في  
خيال الولد الذي لم يشاهد مذبحة. ويطوف بك الحرس،  
كدليل جنة سياحي، في أنحاء بلاده، ويصعد بك إلى  
جبل كست ناوي إليه وتشرع في السباتات البرية، حتى  
تشرّب مسام حلدك برائحة المريمية. الحين هو الرائحة.

وللحين فصل مُدَلَّل هو الشتاء. يُولَد من قطرات لاء  
الأولى على عشب يابس، يصعد رورات استعانة أنثوية،  
عطشى إلى البذل. وَغَدَ برفاف كوي هو المطر. وَغَدَ  
بافتاح الخُفْلَق على جوهر، وحلول المطلق في ماهيات...  
هو للمطر.

كم من سديانة هناك تَشْرَبُكُ إلى اثنين: أنت وهي،  
تركصان تحت المطر، بلا مظلة وبلا قُبْعة، سعيدين  
بمصباحة شريفة، سعيدين بمصاف عزّي. تركصان ولا  
تعرفان إلى أين، متحززين من الطريق ومن الهدف. تلهشان  
معاً من تعب لديد المسبب. وتندشان في جوف سديانة  
صيق لا يتسع إلا لواحد. فتلتصق بك وتلتصق بها حتى  
تصيرا اثنين في واحد. وتقتصرك وتعتصرها فيسبح لاء

عليكما وفيكما وتلهتان من الدماء ولا تحتاج الشهوة  
إلى دريعة المطر الذي أدخلكما إلى محدع السديانة  
واصرف. الحين هو اختلاط النار في الماء.

وللحنى صفة أخرى هي الحين. في كل شتاء يوجعك  
فرح غائب، وتمشي تحت المطر واحداً في اثنين أنت ومن  
كُنْثُهُ في شتاء آخر، فَنُفْثُهُ إلى نفسك كلاماً لا تفهمه  
بعبر الذاكرة عن استعادة العاطفة السالفة، ولقدرة الحين  
على إصفاء ما لم يكن على ما كان، كأن تصبح الشجرة  
عاباً، والحجر حجلة، وكأن تكون سعيداً في ررانة تراها  
أوسع من حديقة عامة، وكأن يكون الماضي والفا في  
انتظارك عبداً ككليب وفي. الحين يكذب ولا يتعب من  
الكذب لأنه يكذب بصدق. كذب الحين مهنة. والحين  
شاعر محيط بعيد كتابة القصيدة الواحدة مئات المرات.  
وعجور ما زال يحبو لأنه نسي حركة الزمن وتمشي النظر  
في المرأة الحين هو التروير البريء للموثائق لحماية مرجعية  
السمي من الصدا وهو الكلْسُ الضروري لتلصيح البيوت  
المهجورة.

لكن أحداً لا يحزن إلى وجع أو هلع وجارة الحين هو  
اختصاص الذاكرة في تحميل ما احتجب من المشهد

وترميم شباك سقط دون أن يصل سقوطه إلى الشارع.  
والخير قصاص المنع من المنع، وخجل المنع من  
الإعجاب بموسيقى منى وحدائق . . . فأد تحن يعني أن لا  
تعتبط بشيء، ها، إلا على استحياء لو كنت هناك .  
نقول - لو كنت هناك لكنت صحتني أعلى وكلامي  
أوضح. فالحسن هو توف الكلمات إلى حيزها الأول حتى  
لو كانت عامصة وعربية عن الجماعة. لكسي - نقول  
بفسك - أوتر الاغتراب في المنع على الاغتراب في  
البيت، ففي المنع ما يوجب ذلك.

لذلك تحن في الرحام إلى نفسك، إلى حنة للكتابة.  
الكتابة اقتراب واغتراب بتبادلان الماضي والحاضر. ظمأ  
الكلمات إلى ماء يلمع في سراب الأسطورة، وانقلاب  
التشبيه على الشخص، وتمويه الواقع بالصورة، يبدئ الحزن  
الحزبوتين تروهن المسافة . إذ تسقف سماءك بكواكب  
مستعارة، وتمضي مع امرأة أخرى، حقيقة، إلى عرفة  
دافئة، معافى من أسباب الشخص، ومن أين متقطع لا  
يكتمل فله صوت المطر على الزجاج هياج الرغبة ليس  
أكثر من هذا ليرع الضوء من ليل الجسد. سرورك سرورك /  
ماصيك يأتي غدا / على نجمة لا تصيب اليد / بأذى.  
تلقى برأسك على ركبتيها لتسمع إلى ما يقول الجسد

الحسين من الحسين، فقد خُلِقَتْ حَوَاكٍ لِنُورٍ، وَلِنُورٍ وَلَدَتْ بِلَا  
 دَاكِرَةٍ أَنْتَ عَدِي وَحَاصِرِي وَلَا أَمْسَ لِي — تقول لها.  
 وتقول لك أَنْتَ عَدِي وَحَاصِرِي وَلَا أَمْسَ لِي. تسامان  
 الذين في واحد، ولا تحملان بما هو أكثر من هذا لم يسأل  
 أحد مسكماً الآخر عن معنى الاسم، من شدة ما كان  
 مجهولكما الشهية عاكفاً على تأجيج العشة نفسك  
 وتمشيها. وبعد أن تملكها وتملكك وتمشي بها وتمشي  
 بك، يناديك ما يناديها من أقاليم البعيد، فتحرر هي إلى  
 ماضيها خلف الباب، وإلى أعنية غير أعينتك /

الحسين إلى اليد، إلى الطريقة التي تم بها إيلاج المفتاح  
 في قفل الباب. وإحفاء النظرة عن عايتها. واختيار انقعد  
 وموسيقى الليل بمهوية مُشْرِسة — هو التمرين العاطفي  
 على جسٍّ مبصر الكون. وهو، أي داك الحسين، استرجاع  
 للمفصل الأجمل في الحكاية: المفصل الأول المُزَجَّل  
 بكفاءة اليد.

هكذا يُؤَلَّد الحسين من كل حادثة جميلة، ولا يُؤَلَّد من  
 جرح. فليس الحسين ذكرى بل هو ما يتبقى من متحف  
 الذاكرة الحسين انتفاحي كيمستاني ماهر، وهو تكرار  
 للذكرى وقد صُمِّيت من الشوائب. وللحسين أعراض

جانبية من بينها، إدمان الخيال النظري إلى الوراء، والخرخ من رفع الكلمة مع المكسر، والإعراض في تحويل الحاضر إلى ماضٍ، حتى في الحب، تعالي معي لصنع اللينة ماضياً مشتركاً - يقول المربص بالحزن. سأتي مثلك لصنع غداً مشتركاً - تقول المصابة بالحب. هي لا تحب الماضي وتريد سبيلان الحرب التي انتهت. وهو يحاف العد لأن الحرب دم نته، ولأنه لا يريد أن يكبر أكثر.

الحزين ندبة في القلب، وبهيمة بلد على جسد. لكن لا أحد يحرق إلى جرحه، لا أحد يحرق إلى وجع أو كابوس، بل يحرق إلى ما قبله، إلى رمز لا ألم فيه سوى ألم المفنات الأولى التي تدق الوقت كقطعة سكر في فمجان شاي، إلى رمز فردوسي الصورة. والحزين نداء الساي لذي لترميم الجهة التي كسرتها حوفاً خيل في حملة عسكرية. هو المرص المتقطع الذي لا يُقدي ولا يُكيت، حتى لو اتحد شكل الرباء الجسمي هو دعوة للسهر مع الوحيد، ودرية الحمر عن المساواة مع ركب قطار يعرفون عاومهم جيداً. وهو ما يُجمع لأحلام العرباء من مواد مصنوعة من شغافية اللاشيء الجميل، ويُحصن لهم بُنْ القفظة.

وبادراً ما يأتي صباحاً. وبادراً ما يتدخل في حديث عابر مع سائق تاكسي. وبادراً ما يتطلع على قاعة مؤتمر، أو على الموعد الأول بين أنثى وذكر. هو رائد المساء، حين تبحث عن آثارك في ما حولك ولا تجدتها، حين يحط على الشرفة دورتي يبدو لك أنه رسالة من بلد لم تحبه وأنت فيه، كما تحبه الآن وهو هناك. كان معطى وشجرة وصحرة، وصار عساوين روح وهكرة، وجسرة في اللغة. كان هو، وثراباً وماء، وصار إلى قصيدة.

الحبر أنزل لحق العاجر عن الإتيان باليرهان على قوة الحق أمام حق القوة الحمادية... أنزل البيوت المدفونة تحت المستعمرات، يورثه الغائب للعائب، والمحاصر للعائب، مع قطرة الحليب الأبيض، في المهاجر والمخيمات. الحبر صوت الحرير الصاعد من الثوب إلى من يحس إليه في أرب متبادل. هو اندماج العبرة بالوعي وباللاوعي. وشكوى الرمن المفقود من سادحة المحاصر

الحبر وجع لا يحس إلى وجع. هو الوجع الذي يسببه الهراء النقي القادم من أعالي جبل بعيد وجع البحث عن مخرج سابق لكنه وجع من نوع صحي، لأنه يذكرنا بأننا مريضى بالأمل. وعاطفيون!



ألمحُب كالمعاني على قارعة الطريق. لكه كالشعر صعب،  
 تعوره الموهبة والمكابدة والصوغ الماهر، لكثرة ما فيه من  
 مراتب. لا يكفي أن تحب - فذلك فعل من أفعال  
 الطبيعة السحرية، كهطول المطر واشتعال البرق، بأحدك  
 منك إلى مدار الآخر لتتدبر أمرك بنفسك. لا يكفي أن  
 تحب، بل عليك أن تعرف كيف تحب. فهل عرفت؟ لم  
 تستطيع الإجابة لأنك لا تستطيع استعادة الرعشات التي  
 هزتك وبعثرتك على نروات الليلك، وكهزبتك وعذبتك  
 بمداق العسل الحارق. ولا تستطيع استرجاع أكثر أطوار  
 الموت عدوية وحياتك، حيث غادرتك «أنا» ك إلى أنفك  
 خلاقة نفسك الطازجة فيها كالثمرة الناضجة.

تلك اللحظات، حين تشرجعها الكلمات، عشيّة على  
 رفع الجسد إلى مقام الروح من مثا لم يقل لأشياء: «لا  
 وجود لي، لا فيك» وكما صادق؟ وكما صادق أيضاً  
 حين وجدنا وجودنا في قول مشابه وفي مكان آخر. فهل  
 عرفت كيف تحب؟ لم تستطع الإجابة، ربما لأنك لم  
 تبتسّر أحوال لحسّ المتقل في العوارق بين الحب والعشق،  
 والولع والولّه، والهوى والجوى، والشغف والذئف، واليهام  
 والغرام، والشيق والروقة، والصبوة والشهوة، وإعجاب  
 والابجداب ... وغيرها من الثياب الصفات على الرعبات.  
 لكل مرتبة حال من أحوال الجسد، ولكل حال من أحوال  
 الجسد مرتبة بين موت وحيلة. فلا تعرف أين كنت  
 وكيف كنت.

بكيت الآن، إذ تشرف على حياتك إشراف البخار على  
 غيبته من أسرار البحر التي لا تذكر، وتساءل: أين مياثي؟  
 نحار من عودة قلبك سالماً ضليلاً كحبة سَفَرجل صعبة  
 القضم فلماذا بكيت إذاً لأن العذراء لم تكن عذراء قرب  
 الشجرة التي سيقك إليها أخذ مُزوّصي الريح؟ ولماذا  
 بكيت ثانية لأن الثانية لم تمتح لك الباب، وأنت واقف  
 في الرمهرير مرتجعاً من الدل، لا من البرد الذي أوقد  
 مدعائك؟ ولماذا بكيت مرّة ثالثة، لأن الثالثة سافرت، دون

أن تنبيه إلى أنك كنت تعانق وسادة، لا جسداً من حرير  
وريش نعم؟

لا أحب - نقول - لأن لا أحب يشبه حباً، ولا تعريف  
بقوة الجدبية التي تملع الكفن من كيانه، فلا يسأل عن  
دائه وقد اعتربت، وعن حرشته وقد اقتربت من عهودية  
محتارة. أنا لك. بحصيلة شعر طائشة في الريح تستفل  
الخيال من أمكتها. وبشفتين مفتوحتين تصبح بسائير  
الكرر في عمر أوانها. وبكلمة لا معنى لها يُضبط التأويل  
ملكاً على عرش الهباء.

وأنت، أنت المصنوع بتثار كهرباء تسير على غير هدى  
على أثر ما يتساقط من أوراقلك، تدور بك العاصفة  
والعاصفة، وتدور بهما، ولا تدري إن كنت حريماً أم فرحاً  
لأن الالتباس الذي أنت فيه هو الإحساس بخفة الأرض  
وبعلية القلب على المعرفة. وستدرك فيما بعد أن الحب،  
حُبُّكَ، هو أوله. في أول الحب، تكون معداً، كالة  
موسيقية، لإطاعة الهواء في ما يملئ عليك من تأليف. كل  
سمة صمت، وكل سكون صلاة شكر وتكون مُعَدّاً أيضاً  
لاستطلاع ليلتي لتكلم بأمة تعد إليك من ديار السجدة.  
فأطرد هذا الأول، أول الحب، ليمتثل الخيال لك امتثال

العرس للمعارس، ولشعورك الدعة وتعروها كرجل وامرأة  
يتسابقان على استضافة المجهول بكرم الطاعة الجبالة

هي أول الحب تهمر عليك المطالع، ررقاء ررقاء. وهي ألوح  
الحب تحياه، ويمسك ونسائه ويُنسبك المطالع. وهي آخر  
الحب تطبل المطر إلى الساعة وفي العباب تعثر المطالع  
على الموضح انشروسة في شقوق العرفة من كأس السيل  
الثانية، ومن شال أروق، فتتملى، القصيدة بما يقصها.  
وحين تكملها بقصص مفتوح على أخرى، تبرا من ذكرى  
ومن بدم ولا يصداً فيك الذهب. كأل الكتابة، كالخبر،  
هت السحابة إن أشككت بها دابت. وكأنّ لعبارة لا  
تتحفر إلا لتعويص خسارة. فتتجلى صورة الحب هناك:  
في عباب كثيف المحصور.

وحين تخرج من نفسك، كأنك أنت، وتنظر إليك من  
بعيد كأنك هو: واقعاً تحت المطر، على شارع مزدحم  
بالدقة، وفي يديك باقة ورد أحمر، لا تشعر بالبرد، بل  
بسحرية من وقعته الرائعة وتتساءل: هل كان حباً أم  
شهوة، هل كان عشقاً أم شبقاً؟ وتسى شعورك . تنساه  
ولا تبحث عنه، فلا تتألم ولا تدم، بل نكتفي بالسلام  
عليه، عن بعد، وهو يشغل إلى ذكرى بعيدة لا تُورق،

ذكرى تتحكم بها كما تتحكم بجهاز العيديو' تُضغ  
النهاية في البداية، أو تثبت الصورة على ضرورات القلب  
المتقلب.

وتصحك خجلاً من كلام تمادى في مديح الشبق حتى  
احترق: يبدأ من القدمين المكونتين بقطعة شمس، وإلى  
أعلى يلمع اليرق من ساقين مسكوبتين بقلق المهارات،  
فأعلى إلى الزكبتين المصنفتين كمعجزتين، وإلى أعلى  
البصر - الموج في حالة جزر، فأعلى يبدأ العروب  
تدرجياً بامتصاصك بنهم سيلي حبر، ثقيل وتُدبر وتعلو  
وتهب وتغرق وتشق وتغرق في ليل ساخن العتمة فائن.  
يداك أو يدها - لا تدري - تتقافك وتحملائك كسر  
أغمي عليه في مساء يدلف كواكب... تنتظر إلى العيين  
نصف المفتوحتين على عيين نصف مغمضتين، ليتأكد  
كل مسكماً أنه يبيت في الآخر.

لكس أحداً لا يسكن النروة، تسقطان دفعة واحدة من  
أعلى سماء إلى تعاس ميلل بالرداد. نهتمان بصمت  
واحد، بلا شيء أو صبح من أي شيء. وتحميان معاً، وعلى  
حدة، بأن يستمر هذا العناق إلى الأبد، إلى أن يتصح  
لكما أن لهذا الأبد عمراً قصيراً الأمد، وأن الأبدية لا

تنصاع إلى أحد، فهي كثيرة التناول والانتقال من لحظة إلى أخرى، ومن حانة إلى سواها.

وأنت الذي لا تعرف الحب إلا عندما تحب، لا تسأل ما هو ولا تبحث عنه. لكن امرأة سألتك إن كنت تحب الحب لدائه، فتملصت وتحدثت من حجرة الجواب، وقلت: أحبك أنت. فالتحّث. ألا تحب الحب، فقلت: أحبك أنت بدائك، فأنصرفت عنك لأنك لا تؤمن على عيائها. ليس الحب فكرة. إنه عاطفة تسخن وتبرد وتأتي وتذهب. عاطفة تتجسد في شكل وقوام، وله خصص حواس وأكثر. يطلع علينا أحياناً في شكل ملاك ذي أجنحة خفيفة قادرة على اختلاها من الأرض. ويختلجنا أحياناً في شكل ثور بطرحاً أرضاً وبصرى. وبهت أحياناً أخرى في شكل عاصفة تتعرف إليها من آثارها المدمرة. ويترل عينا أحياناً في شكل ندى ليلي حين تحب بد سحرته عيمة شاردة

لكن هذه الأشكال كُلُّها تجتمع في امرأة، حسية مرئية، ملموسة محسوسة، لا هي فكرة. فحب الشكل الجادب، وبكك الخيال على تعكس ما فيه من غموص وعرائب. أما الأرواح فتتعارف وتتألف حول الشكل المتألف

بالجوهر. وقد تختلف على تأويل ما يقول الجسد للجسد،  
فتصرف إلى شعافية أخرى وتحل في أجساد أكثر امتلاء  
بالماء والتاعيم والموسيقى ألحبت هو المتحول الشثقل  
العصبي على الهوية. هو الانخراط الذي يلتبس فيه  
الشعف مع الإشراف. هو ما لا نعرف ونعرف أنك لا  
نعرف. هو اكتمال المعنى باللامعى من مرط جسوجه إنى  
المجربة وتبدير المحصور. وهو نفيس التكرار والإخاخ على  
إصلاح الهواء واللون، ولأ صار رواجاً تحمل فيه صيانة  
الكلام من الزلل محل الارتجال الضروري لشعر لا يقوم  
الحب إلا عليه، فلا يصلح نشر التدبير الشرلي لإبقاء  
إجاصتين طازجتين على طبق المرمر، ولشعرين المجهول  
على رفاق الطريق أمام المعلوم. لا يد من سر، لا يد من  
سر دائم، ليبقى الحب مفاجأة وهدية، فلا تفتح خزانة  
ثيابها المألأ بأسرار طباعها

ولد محمد الشعف ابتعد الحب، رويداً رويداً، إلى نهار  
الصدقة وتقول لها: ما أجمل الصداقة حين يشيخ معاً،  
وأنتكى عليك وتشككين على، وأرحمك وترحميني في  
دار العجزة حيث لا تقوى على التدكر. لكسي أثر أن  
أعتمد على عكاري، لا عليك. ولا أريد أن أرى روميو  
وجولييت، ولا قيساً وليلى، أناسي في أزدل العمر. للحب

تاريخ انتهاء، كما للعمر وكما للمعلبات والأدوية لكني  
أفضل سقوط الحب، بسكينة قلبية، في أوج الشبق  
والشعب، كما يسقط حصان من جبل إلى هادئة

سألتك من هي، فقلت لا أعرفها من فرط تعددها في  
واحدة. هي ولا هي. هي وثن إذا ما اجتمع في قصيدة  
حب كثيرة المصادر، تنوزعها ضرورات البحث عن تحقق  
ما لا يتحقق، وعن بناء يعمرها دون أن ندرك أنه لم  
يصل، وعن تجدد العطر أمام السبع. هي ولا هي إن  
حصرت وإن عابت، فكان حضورها عياني فيها، وكان  
عيابها حضور التفاصيل. لكنها تنتشر بعدة أسماء، فلا  
أدري إن كانت هي هي، أم من ساء مخيلتي ورعباتي  
لتبذلة. لذلك يبدو أنها اختراع، لأنني لا أعطىء  
بالأسماء، فلا أنادي غيرها باسمها الذي يسوته من قلة  
الاستعمال.

وسألتك. ثم تعرف، إذا، كيف تحب؟ فادهشي قولك:  
ما الحب؟ كأنني لم أحب إلا عندما كان يحيل لي أني  
أحب. كأن تخطفي من باعدة قطار تلويحة يد، ربما  
لم تكن رسالة إلي، فأوثنها وقيلبتها عن بعد. وكان أرى  
على مدخل دار السيماء فتاة تنتظر أحداً، فأتحيل أني ذاك



الأحد، وأختار مقعدي إلى جوارها، وأراني وأراها على  
الشاشة في مشهد عاطفي، ولا يحسي أن أخرج لو  
أحزن من نهاية الفيلم. فأنا أبحث في ما بعد النهاية عنها.  
ولا أجدها إلى جوارني صد أنزلت الستارة.

وسألتك: هل كنت تمثّل يا صاحبي؟

قلت لي: كنتُ أخترع الحب عند الضرورة / حين أسير  
وحيداً على صفة النهر / أو كلما ارتفعت نسبة الملح في  
جسمي كنتُ أخترع النهر...

من الخروج والدخول رَمَتْ مدينتُ يَدَاكَ لَكَ بَدْوَعُ الْمَمَى بِمَا  
يَسْتَحِقُّ مِنْ شَيْءٍ. لَكِنَّكَ لَمْ تَعْلَمْ لِمَاذَا اخْتَبَأَ الدَّمْعُ تَحْتَ  
مِطْحِ الْكَلِمَاتِ، ثُمَّ طَعَا وَطَفَحَ، وَأَسَتْ تَوَدُّعُ نَوْمٍ فِي  
مَسْرَحِهَا الْبَدَنِيِّ.. وَتَوَدُّعُ الدَّاهِيَيْنِ إِلَى سَاحَةِ الْبِلَادِ  
الْخَلْمِيَّةِ... الْخَارِجِينَ مِنْ مِصَاءِ الْأَسْطُورَةِ إِلَى وَعَاءِ الْوَقَائِعِ  
الصَّبِيغِيِّ. أَقْبَلُ مَا يَرْتَضِعُ مِنْ أَهْقِ مُغْرُورِقِ بِيحَارِ الرُّطُوبَةِ  
الصَّبِيغِيَّةِ عَلَى أَلَمٍ لَمْ يَنْتَبِهُوا إِلَى آثَارِهِ الْجَانِبِيَّةِ. لَعَلَّ الْفَرَحَ  
بِالْمَغَامَرَةِ، مَغَامَرَةُ اكْتِشَافِ الْأَرْضِ الْمَوْعُودَةِ مِنْ جَدِيدٍ، هُوَ  
مَا أُنْسَى الْعَائِدِينَ مَدِيحَ قَرطاجِ يَكْلَامِ يَلِيْقُ بِبَحْرِهَا  
وَبِحَسَنِ ضَيَّاقِهَا.

عائذون، عائذون بلا نشيد عالي وبلا راية جهور،  
 كمتسللين من ثقب جدار تارة، وتارة كمتحتمين بدخول  
 بوابة واسعة لسحب بحسب التسمية، وطسقي لغوصي  
 المهاجرون عائذون والعائذون مهاجرون وبين العارق  
 والعارق بهجة سيبان ضروري للشرط الذي يتحكم  
 بالكلمات، كما يحدث حين نفصل الرمور عن الرفع،  
 والتسميات عن التسميات، والألفاظ عن معانيها عودة،  
 استغلال، دوة، سلام، سيادة، ستجاد أحمر، وراة، رئاسة  
 — كلمات تشير إلى الشيء عن بعد ولا تعبّر عنه ولا  
 تشبهه. كأن الهوية القطشني إلى امتلاء ما تمتلئ بأمية  
 ظلتها محففة.

سجالاً مع الذات صامتة تروّج فرحة اكتمال الدائرة على  
 أمواج البحر، تخبرنا هذه المرة. وهي مخيلة العائد من  
 إصجار جماليات الصور ما يُكفّر عن خطيئة الخروج،  
 الإيجاري وشبه الإيجاري معاً، وما يهوّس عن يسفر  
 الهجرة سرى شمساً تشرق من شرقاً، لا من جهة  
 المسمى ولعواكها تأويل الدهني للحتمي:

الندحة عض الشكّل، بلا عقوبة على معرفة /

الأجاضة نَهْدَ مثالي التكوين لا يريد عن راحة اليد ولا  
ينقص /

أَلْبَسَ بداء الشكر أب اعترضني في صدك لو هي الجرار /  
أَلْشَمْتُ عودة الحين إلى أصله شاحياً /

أَلْبَرْتَالَةُ فكرة نصي في الليل، وتوكل في كل حين /  
أَلْبَسُ امروح الشمن، بأصبعين، لتنفق المعنى الإبروسي  
دُفْعَةً واحدة /

أَلْبَسُ الشوكي دعاء العراء عن كثرها /  
أَلْكَرُ اختصار المسافة بين شهوة العيون وصبوة الشمن /  
أَلْشَمَرَجُلُ مشاكسة الأنثى للدكر تشرك غَضَّة في حلق  
الخائب /

أَلْجَو لعاب يسيل على لغة مرئية /  
أَلْجَوَلَةُ حَبَبَات لَوِي ليس أحمر وليس غير أحمر نحيل  
على فضيحة الشيب /

أَلْثَوْتُ، سَكْرِي اللون أو أسود، ذكرى قبله أوبى /  
أَلْثَمَانُ احباء اليافوت في التورية /

وكلما اقترب العائد من العودة صار هو إطارها الذي لا يمنع انشاعر من السيولة بطولته عجولة تترجل عن ضهوة بلا هرس، وتدخل في استقبال العادي للعادي ... ستقبل القرب وتعاق جدوع الشجر، وتقول كلاماً معصوماً من بلاعة المنصر أو الأسير، بلاعة طورها المعنى لتحسين شروط الإقامة على جسر، ولتشهير بحماية القلب الجماعي من الخلف. وكلما اقترب العائد من أرض الأحلام الكبرى اعروفت عيناه، وتلكأت خطاه لئلا يثقل على طريق الرمل ... ونظر إلى الخلف مودعاً بطولته أطع طقوسها بانضباط جمدي ... بطولته بعيدة عما يحتاجه الآن من مشاعر تثيرها فيه، بلا ترتيب، قبلولة مُشْتَهَاة تحت دالية عنب.

هل انتهت الرحلة أم بدأت؟ هل اقترب هو من المكان، أم افرق المكان عن صورته في الخيلة؟ العائد كبير السن هو المرشح للمقارنة وللحيرة في ترجيح المشغل على الواقعي. أما المولود في المعنى على أوصاف نقيضه الخنسي، فقد تخدله جنّة ضبعت خصيصاً له، من معردات تشربها وصنع منها صوراً مخطئة، لتكون مُرشدة إلى الاختلاف. لقد ورث الذاكرة عن أهل خافوا عليه من المسيان / رهاك الآخرين. وورث الذاكرة من إلحاح

الأشيد على تمجيد المونكلور والبدقية التي صارت  
هوية، مد وُلد الوطن، بعيداً عن أرض الوطن . ولد  
الوطن في المعنى وُلد المردوس من جحيم المياب.

وأنت، أنت لم تكن معهم. هيك من عمر النعمى ما هيك  
من عورك في الوطن. لم نعلم لماذا هكيت في مسرح  
تونس، وهكى معك جمهور أصيب بعدوى اليكاه  
العامص. فالدمع يُعدي كالتناوب. ألأنت لم تكن معهم،  
أم لأنك من صاع إعلان الدولة المرجوة، وتعرف أن  
الدولة ما زالت مصاً أدبياً. وتشعر بأن الياب الذي يدلف  
مه العائدون لا يقصي إلى استقلال ودولة. صحيح أن  
الاحتلال قد خرج من غرفة النوم، لكنه يجلس في  
الصائون وفي سائر العرف. يتحكم بحفنة ماء وُرر  
الكهرباء وورقة البحر. أليس هذا حساً بعض الشيء؟  
أليس هذا أمصل من لا شيء؟ تصوير إلى اثنين: واحد  
يقول نعم، وواحد يقول كلا! ولكن لم كُل هذا  
الصخب الاحتفالي الكذاب الذي يُختر العالم بالضرورة؟

تسمرت أمام التلمريون، واتحدت هيئة الخايد في حصرة  
الحيرة التي أقامت حاجراً بين العقل القلب العقل يقول.  
إنها مسرحية فاشلة باطلة والقلب يسأل: كيف أنجو من

سحر الإخراج؟ العشب أخضر، والنجاح ملائم للمعيد،  
 وسيد العالم جناب. يقترب العدوّان الممدودان  
 ويتصافحان: أحدهما على مصصر، والثاني بثقة تبرعة  
 والجمهور المشتى بعناية بلاذخة يصفق لأعطافة التاريخ في  
 حديقة البيت الأبيض. لكن اللغة التي تسمحها تعيد قلبك  
 إلى صوابه: لا، ليست هذه لغتي. فأين بلاغة الصحة  
 التي تسترجع ذاكرة عذابها الطويل، أمام شقاء المحطة  
 التي ينظر فيها العدو في عين العدو ويشدُّ على يده  
 بإحاح؟ أين أصوات الفئلى السابقين والجند الذين  
 يطالبون باعتذار لا من القاتل فحسب، بل من التاريخ؟  
 أين حيرة المعنى في لقاء الصّد بالصّد؟ وأين الصرخة  
 الملازمة لعملية جراحية يُنقَرُ فيها الماصي عن الحاصر في  
 معامرة السير إلى عد ملتبس ... وأين لغتي؟

ألهذا كان ردك الشخصي هو الدفاع الشرعي عن الحكمة  
 والذاكرة؟ فكثبت أصداء سيرة شخصية - جماعية،  
 وتساءلت: لماذا تركت الحصان وحيداً؟ فماداً يستطيع  
 الشاعر أن يجعل أمام جرحه التاريخ غير أن يحرس شجر  
 الطرقات القديمة وبيع الماء، المرثي منه وغير المرثي؟ وأن  
 يحمي اللغة من ركازة التراجع عن خصوصيتها المجارية،  
 ومن إفرعها من أصوات الصحايل المطالبين بحصنهم من

ذكرى العد، على تلك الأرض التي يدور الصراع عليها إلى ما هو أبعد من قوة السلاح قوة الكلمات.

وانهالت عليك سهام الأسئلة المسمومة ماذا ستكتب من دون معنى؟ وماذا ستكتب من دون احتلال؟ أما الشقي فهو الوجود. وأما الاحتلال الموجود فهو ما يعيق فاعلية الخيال. سأكتب أفصل. لكن، لماذا لا يُؤجبه مثل هذه الأسئلة إلى شعراء شعوب أخرى؟ لأن شرط الإبداع الفلسطيني هو العبودية، أم لأن الحرية لا تليق لإيقاعاتنا؟ وما معنى أن يكون الفلسطيني شاعراً، وما معنى أن يكون الشاعر فلسطينياً؟ الأول. أن يكون شاعراً لتاريخ، موجوداً باللغة. والثاني. أن يكون صحبة لتاريخ، منتصراً باللغة. لكن الأول والثاني واحد لا ينقسم ولا يلتئم في أن واحد.

عرة وأريحا أولاً وإذا كنتم أولاداً طيبين، فلي تكون غرة وأريحا أخيراً وأخيراً سافرت إلى غرة لم ترها من قبل كتبت لها وعمها كما دُسمت هي صورتها قلعة محاصرة بالبحر والمحيط والعراة والجُتير قلعة لا تسقط. عرة هي العزة المُحتزة باسمها المُستَغرَّة، بلا انقطاع، من صمت العالم على حصارها الطويل وعلى الطريق الطويل



من القاهرة، على رمال سيناء، ثم تملح في نقل  
أحاسيسك المتأرجحة إلى كلمات واضحة كان الكلام  
عصياً على الوصول من القلب إلى اللسان، كحرف اللام  
الروسي الذي يصعد من البطن ويقف عند سقف الخلق

سألت السائق. أين معبر بيسو، لماذا لم يأت معي؟  
قد تترك بأنه نام في حمرة رمل في صاحبة من صواحي  
القاهرة. لم يجدوا له مكاناً في غرة. فَنَشِطْنَا كُنَّا نبحث  
عن بيت، وصرنا نبحث عن قبر. أه، لو انتظر قليلاً... لو  
لم يسافر إلى لندن، لو لم يضع على باب غرفته في  
الصدق الرجاء عدم الإزعاج لكان مضيبي اليوم في  
غرة. غرة ملكيته الشخصية، ومملكته الشعرية الخاصة. كم  
متبدو غرة ناقصة؟

كان لغروب في العرش بلياً فُشعة الشمس تتهلل في  
احتصاد سمع السحيل، وتناثر لون النار الذي يترجل  
مها، علي تهل على تهل، ليرتق أمواج البحر المستسمة  
إلى غزل أهدى، فَنَحْنُ بِسَائِمِ صَبِ رطبة، كمروحة في  
يد ملاك متطوِّع متى يدخل غرة؟ سألت صديقك  
المشغول بجمرة الأرجيلة، فقال: حين يحل الليل قلت:  
أريد أن أراها بكل الحواس، فابتسم الوطن في الليل

أجمل تمثع الآن يعروب الشمس في بحر العرش، على  
 ترى البحر هياك كما تراه ها . البحر هياك مُشْتَوِّلٌ.  
 وكثرة الوطن في الليل أجمل، تمهّل تمهّل! وصعت دفتر  
 الملاحظات والتوقعات في حقيبة اليد وأعلقتها على  
 عواطعك. بماذا تشعر؟ سألك ياسر. قلت لقد استوف  
 الطريق الطويل مشاعري ونوقعتني .. لا أشعر الآن بشيء  
 ولا أتوقع شيئاً. قال: هذا أفضل.

في الظلام دخلنا، أو تسفلنا إلى عرة، ترككك تمشي  
 أمامي، وحملت منك خيالك. طست بقادر على صيانتك  
 من الوقوع على صلاة الواقع. ورأيتك تحمي وجهك عن  
 إلهام الكاميرات المنصوبة لالتقاط بشوة العائد، ولتصوير  
 الكلمات المعقدة لهجاء المنفى. قلت: أتيتك ولم أصيل،  
 وجئت ولم أعتد لم تكذب على أحد ولا على نفسك،  
 فالمسألة ليست احتمالية. وعزة لم ترغم نفسها بعد كان  
 الدمار الذي تركه الاحتلال يتغلغل في أعماقك. وإذا لم  
 تحلم بما هو أبعد فسيهرب البحر من الصيادين في لعتك.  
 في ذلك الليل المقطّع بالحواجر والمستوطنات وأبراج  
 المراقبة، يحتاج المرء إلى عِلْم جغرافيا جديد ليخبر الحدود  
 المعاصلة بين الخطوة والخطوة التالية، وبين المسموع

والمسحوق، كصعوبة العثور على العاصم والواصح في اتفاقيات أوسلو.

عليك أن تنام في آخر الليل، مستريحاً بقرص مهدئ، وحين تصحو تحتاج إلى وقت ما لتتفتح بأبك في غرة التي سرعان ما يغتثها به مديحة اليأس واليأس. وفي الصبح الحار تذهب مع بعض الأصدقاء من العائدين لزيارة المحميات. تمشون بصعوبة في الأرقعة، وتحجل من الماء والمظافة. ولا تصدق، كما لم تصدق أبداً، أن أوعية اليأس هي الشرط الوحيد لتحديد أو تأكيد حق العودة. لكنك تتذكر ما ينبغي لك أن تنساه: صميم العالم. وتشتت نظريات التقدم وقصيدة التاريخ التي قد تعيد البشرية إلى الكهف. وتحرم نفسك، لتكون واقعياً، من معمل التعاؤل والحماسة، وتستعيص عنه بحجة دواء ضد ارتفاع ضغط الدم وتقول: إذا عكزت بشيء آخر سأرمي بضميري إلى القلط.

تساءل: أي داهية قانوني أو لعوي يستطيع صوغ معاهدة سلام وحسن جوار بين قصر وكوخ، بين حارس وأسير؟ وتسير في لأرقعة غجلاً من كل شيء من ثيابك المكوية، ومن جماليات الشعر، ومن تجريدية الموسيقى، ومن جوار

سعر يتيح لك إمكانية السفر إلى العالم. يُهيئك وجمع في  
 الوعي وتعود إلى غزة المتعالية على محرماتها وعلى  
 اللاجئ، المتوجّهة من العائدين، فلا تعرف في أية غرة  
 أنت وتقول.

أنت ولكني لم أجعل.

وجئت، ولكني لم أعُد!

على الطريق الساحلي، يتوَّجَّع قنْبُك للقعر أمامك تَكُكُوبُ  
 ضَيْدٌ لم تَسْمُ وَإِذْ كَسَتْ تَحْلُمُ بالطيران كَالْحَجَلِ عَلَى  
 ارْتِفَاعٍ مَحْضَمٍ وَتَعْلَمُ أَنَّ لَاقِمَةً تَبْقَى عَلَى حَالِهَا عَالِيَةً  
 عَالِيَةً. فَلِلْوَقْتِ يَغْلُ السَّحْتُ فِي الصَّخْرِ، وَقَدْ تُغَيِّرُ لِأَمْكَةٍ  
 مَوَاقِعَهَا إِذَا أُتِيحَ لِلشَّعْبِ أَنْ يَهْبِثَ عَلَى هَوَاةٍ، وَيَحْوِلُكَ  
 رَغْبَةً كَمَا أَنْتِ الْآدُ عَلَى الطَّرِيقِ السَّاحِلِيِّ الْمُصَوَّبِ  
 كَسْهُمْ إِلَى الشَّمَالِ. الشَّمَالُ، هَلْ مَا رَأَى فِي مَكَانِهِ  
 الْمَصْرُوعِ مِنْ جَبَلٍ وَبَحْرِ تَوَاقُفٍ؟

لَمْ تَسْمُ جَيْلًا مِذْ وَصَلْتَ إِلَى رَامِ الدَّهْ مِنْ عَمَّانِ قَبْلَ  
 يَوْمَيْنِ، حَيْثُ وَقَعْتَ عَلَى جِسْرِ الدَّبِي كَأَسِيرٍ مُحْتَرَمٍ يَرَى

جود يظرون إليك بمصوّل ثقيل، ويتظرون أوامر أخرى من أجهرة أخرى للتأكد من أنك أنت أنت، لا انحر يتقضمك ويتحل اسمك ليحزب هذا الدلّ، ليكتب شعراً عن مراوعة الظل.

ثم يكوموا محطتين تماماً، فعلى هذا الجسر لا يكون لدرء من كانه سد قليل مثلهما إلى مواعده مع أرض الحكيمات الكبرى والصغرى، مُلتقاً على دانه كمنقوفة أو بصلّة لم تُقشّر. هناك يُقشّر الجدي أو الجندية بلا كياسة. فلهما عليه حق الأمر واليهي: احنغ حدامك. انزع ساعتك. فُك حرامك. وانزع بطارتك، وادخل في الجهاز. برنّ الجهاز وتعيد الكرة وبرنّ الجهاز. فتحصع للتمشيش اليسوي ويعثرون على مصدر الرنين إنه قلم الجبر العاخر. يُفكّكوه ولا يجدون فيه غير الجبر الأسود في المرة القادمة أخرج قلم الجبر من جيبك. فتقول في المرة القادمة لن أحمل قلماً من هذا النوع.

هناك، على الجسر الذي لا يمر تحته سد تعرضت مصادف مياهه للهب، يتقشّر الحلم، وتشتب صورة البلاد، ولا تكون أنت أنت. تقشّر من أريحا، أريحا الواقعة لا الأسطورية أشجار السحيل على الجانبين، وتبحث عينك

عن «وردة أريحا» الشهيرة ملا تجدها، ولا تجد آثار  
الأسطورة التي صارت ممثلة من فرط ما شردت وشكك  
بها المؤرخون. بيد أن أريحا لها في أريحا. تصعد إلى  
جبل التجربة، إلى دير صحر مسحوت في الصحور. ها،  
جاء الشيطان إلى المسيح، الذي صام أربعين يوماً وأربعين  
ليلة حتى جاع.

ثم مضى به إبليس إلى جبل عال جداً وعرض عليه  
جميع ممالك الدنيا ومجدها، وقال له: أعطيك هذا كله  
إن ارتفعت ساحداً بي. فقال له يسوع: إلهك عني يا  
شيطان، فإنه مكتوب: لله ربك تسجد وإياه وحده تعبد.  
فتركه إبليس، وإذا بعض الملائكة قد دنوا منه وأخذوا  
يقربون له الطعام.

تجلس في مقهى قريب، ولا تستطيع احتساء صجان القهوة  
الذي ينامك عليه الدباب. دباب بلا نهاية. دباب سعية.  
وتستعير سؤالاً قديماً: لماذا خلق الله الدباب؟

حصة من أرض عشوائية التكوين خبثتها هرة هي غصية  
إله. نلال رملية بنت كالعطر على عجل وفوصى بحبل  
لك أن لأبدية قامت بزيارة خاطعة لتتقيد آثار الخوف على  
الراهن المحدث إلى هاوية فزت منها متوجات لولية. هل

وصلت الحياة إلى هنا هاربة من البحر الميت؟ ها هي تُطلُّ  
بتوابعاتها الصغيرة من الصخور الرمادية والسوداء، شقائق  
عماد طالعة من وحشة المكان. - قليل من رداد وضوء  
يكفي لتعلّب الحياة على العدم. وقليل من الأمل والرسم  
يكفي لتعبر شعاب الأسطورة سالماً من مصائر أسلافك.  
فاقتبس من شقائق العماد جمال الدلالة وقل: لا شأن لي  
- وإن حاصرني الموت - بالعدم /.

وإن سألوك عن قوة الشعر قل: ليس العشب عشباً كما  
يرى. ولا ينكر مند أحصى ظله المتواضع في سِرِّ الأرض.  
وفي العشب على الصخر إصغار الكلام الدارل من عيب،  
بلا ضجيج وأجرام. العشب بيوتة عفوئة لا بيتي لها إلا  
لونها المهاد لليباب. ألعشب نجاة المسافر من بهشاعة المنظر  
ومن جيش بطوّق الطريق إلى الشُّكس. والعشب يشفر  
البديهة السلس، المتنع السهل والسهل المتنع وذنوب اللغة  
من المعنى واقتراء المعنى بصياغة الأمل.

وإن سألوك هل تعرف من بحر أم تحت في صحرا قل:  
لا يقطع في الصخر سوى إزميل الماء. وإذا سألوك عن  
المسألة بين الشعر والموت، فانظر إلى العشب وقل ما لا  
يجاب للحقيقة: لا شعر يهرم الموت في ساعة اللقاء، لكنه



يرجئه، يرجئه إلى وقت ضروري لاختبار جدوى العاء في  
 حفلة طويلة إلى أن تكتمل الأعية، ويقع المحتفي في قبضة  
 قشاصه الواقف خلف الباب، وقد لا يمتد إلى موت  
 المعسي، ما دامت الأعية قد صارت جماعية، بحيثها  
 الساهرون في هذا الإرجاء، يُحِيل للمعسرين اجدد أن  
 الموت نام، فَيُصْحَوْنَ في عَقْلِهِ عه على شقائق السمان  
 المرحبة بهم، كمطابع قصائد كعانية، لم يكمل كتابتها  
 رعاة العزلاء المشغولون بمطاردة الدباب وبسات أوى.

وعلى الطريق الساحلي الراكض نحو الشمال، تُفْرِغُ قَلْبُكَ  
 من حمولته الرائدة، ليمتليء بمواهب المكاد من شجر  
 ورائحة وعندلة وتواشيع وتياريح. ولا يبقى في دهش من  
 أوصاف الجنة غير التماثيل الأخيرة، على الدرع الحجري  
 إلى نافذة مصب مفتوحة كنت ترى منها البحر والعروب  
 وتعرب في العرلة. أنا والشمس صديقان حميمان /  
 ومحرومان في الليل من المشي على الشارع / قد يعجبي  
 المعسي / ولا يعجبي / لكسي أدمت إيقاع الأغاني /

يَهْئُ عَلَيْكَ هواء الحين من ناحية البرتقال، على يمينك،  
 ومن الجود البحري على يسارك. ومن الشمال يَهْدُوكَ  
 الاقتراب من محتويات القلب بصياح يُصْغَبُ على

الذاكرة انتقاء الشخصي من العام. تخاف على الحاضر من سطوة الماضي، وتخاف على الماضي من عبثية الحاضر، فلا تعرف أين تقف من هذا للعتوق. هل أنت ما كنت أم أنت ما تكون الآن؟ وتخاف سيان العد في حماة السؤال في أي زمن أنا؟

نضدك عما أنت به النباش بين فضول السائح وشحن الرائر وفرح العائد. إن ثلاثة عقود من غياب الدات عن مكائنها تجعل المكان داتاً يتيمه، وتجعل الدات قطعة من أرض متقلبة... قد توسع الشيد، ولكنها تثقب قلب المشد فتزداد أخطؤه. ومن أخطائه أن يودع ما يرى، ولا يرى إلا جمال السراب الواعد بالأمل. فماد تفعل حين تصل إلى الكرمل غير أن تسأل: لماذا برئت عن الكرمل؟ وفي نفسك الأمانة بالحيرة جواب مبهم: لكي أتعلم المشي على طرق لا أهرقها.

وعلى الطريق الساحلي الساحر ظلال من ماصيك، وجمال متسامح يعبر للمعائب ما ارتكب من أخطاء، كنوخية لا نبالي بمن غاب عنها وحصر الصياح نظمت ريعي مشمشي مشمس سلس التفتق. وفي قلبك استقبال لعرو المشهد المتلرج بين اللازورد والأخضر عبر رجح

السيارة المسرعة إلى الموعد للقلب إلى صدره. يا له من موعد لا يتسبغ إلا لمقعد واحد لك، أو لإميل حبيبي الذي استعجلت ليصغي لحسابه معك، ومع حياة لا تشبه الحياة إلا في مجاتها من شرك الأساطير المنصوبة بإحكام الصياد الماهر، فقلومه بالصحك وبالسحرية من دهاء الصياد ومن مكر القطة معاً. بحث تعبيرا «المشائل» ليعثر على حريمه المنتبسة بين المثلثين. لا هو هو ولا هو آخره. فيه منهما حالة لا يشرحها إلا الضحك. لكنه يدافع عن حيرته وشكّه بهيفيس لا يستجيم مع الشك. بين نصه الأدبي وصحيفته الإعلامي والسياسي ناقص لا يُفالج إلا بإسحار القارئ إلى صدق الأدب، وأولوية المد على الهامش. قال ساحراً من نفسه كانت لي دجاجة تبصر ذهباً، فالتهمت الدجاجة. ومن مرط إدراكه قوة السخرية كانت تخرجه حين يكون هو هدفها. فالساحر لا يحتمل ارتدادها إليه. وكان يصر من قناتك — كما يقولون — كلما اختلعت معه وعه. لكن، وهو بعد جنارته، ويشرف على أرشيف حصته من الخلود، ألق عليك، كما لو كان يكتب وصية، بأن تلتقيا في حوار ميسمائي حيث كنت تسكن في شارع عباس.

حين قلت له كيف أصل من رام الله، يا أبا سلام، إلى

حيما، ودَوَّنَها كل هذه الدولة المنهجية بالمنوعات، قال:  
 سأبدل كل جهدي للحصول على تصريح يسمح لك  
 برحلة الجليل يومين. لكن لا تتأخر، فإن الموت لم يترك  
 لي من الوقت إلا القليل القليل في المساء بثُروك بأن في  
 وسعك السفر إلى حيما صباح الغد. وفي الليل رأيت  
 ديمكين يساردا أمام الكاميرا ورأيت ريشاً يتطاير في  
 الهواء. وفي الساعة الثالثة بعد منتصف الليل أبغضوك  
 بمخبروك أن إميل حبيبي لم يمشك من الاضطراب. لقد  
 دارق الحياة. وعليك السفر إلى الناصرة لتشارك في الجارة  
 والتأبين. لقد أوصى إميل حبيبي بأن تُكثف على مشاهدة  
 قبره «باب في حيما».

وعلى الطريق الساحلي تساءلت: ومادا لو بقيت في حيما؟  
 ماد لو بقيت في أي مكان؟ ماد لو كنت؟ ماد لو لم  
 أكن. تتعاشى الوصول إلى الخلاصة. باطل الأباطيل،  
 والكل باطل. فجأة يسقط مطر خفيف يبلل روحك،  
 ويبلل الفراشات. رداد وضوء. وفراشات ترعرع على  
 ارتفاع مخفض على الطريق الساحلي. الفراشات حواطر  
 مبعثرة، ومشاعر طائفة في الهواء...

يتصاعد الخيال مرثياً كالسحاب على تلال تحمل القرى  
 على خواصرها مُشْبِثَةً ببداية التكوين وأنت تعرف من  
 التصاميم ما يملأ كتاباً مفتوحاً على قراءة نافذة لا تهدد  
 القارئ ولا الكاتب بفصل النهاية. للجليل قصائد يكتبها  
 عديان الصوفي، وموتى يتدربون على العودة إلى طعونة  
 أنقذتها المراشات من غزو المسيان. القرى المدفونة تحت  
 الأرض ترسل ذكرياتها إلى القرى الساجية، التي يحلج  
 أهلها في الربيع إلى أعشاب تنبت من ماصيهم. ها ولذنا،  
 على حافة هذه البئر كما تولد الخبيرة والهدباء والعيجس.  
 وها ولذنت كما يُولَّدُ الخيال تدريجياً من كل شيء،  
 فكيف تعبد الخيال معاني وتطير على حصاد؟

لا أثر «بلزوة»، على يمين الشارع القادم من الباصرة، غير صورتها في خيالك المطعون بقرون الشيران التي تمصع وتجتزئ علف دكرياتك. قلت: أمرُ بها عبد العروب لأذخر لخيالي غموضاً يُعَبِّئُ العريب فيك على ابتكار الصور من ثابها للحجر. وقلت: أمرُ بها في العروب لفلا يراني أحدٌ غيري أبحث عنها في ما انقطع سي، فأعني للبحث مدائع ضرورة لرد الخيال إلى طيش جميل يرتق ثوب المكان. وقلت: أمرُ بها في العروب لبثقي الشكل مع المعنى على إيوائي، وأناجيها

هذا أنا، هذا شؤ

هذ هو الولد الشقي ابن الشقي / ابن الشقي، وابن ماإلك  
وابن مارك / جئت منك وجئت من عدم ومن إحدى  
قصائدك القديمة جئت، جئت من الخيال / لكي أُعيد  
لك الخيال وأخضع أسلك / في الصخور كسائر الشعراء  
في هذا الباب / سألت بغلاً عن أبيه، فقد لي:

خالي حصان، ثم غاب /

سألت بشاً عن أبيها، فاستحسني / وقالت رُحماً هو  
أنت وأرتدت الصباب /

سألت قُبيرة تناجي أمها عن أمها فقلت، وقالت: ربما هي  
أنت فاحملني / وباتت في يدي /

سألت نفسي: من أنا؟

ردّ الصدى الليلي حولي: من أنا؟

هذا أنا. هذا هو

هذا خيالي كله /

ومضيت إلى بيت أمك المحادي لأرض الخيال الأولى لم  
تتصرف على معالم الطريق، فقد اكتنظ المكان بالبيوت  
المتلاصقة العشوائية وبأولاد تكاثروا ونصايحوا: هذا عمي.  
هذا خالي. لم تنبه إلا الآن إلى أنك عمٌ وخالٌ، كما لم  
تعلم إلا الآن أن أمك تعمي. تطلق الرغاريد والأشيد التي  
تحاطبك باسمك الكامل، وترى إليك عارساً عائداً من  
رحلة الأسطورة ترجوها أن تكف عن اختراع المجد على  
وتيرة الحرمان والبعد. فما أنت إلا ابها وما هي إلا أمك.  
تضئها وتضئك على مرأى من كاميرات الهواة المصنوعة  
إلى قلبي.

تقول لك: أكاك على صاحبك أن يموت لكى سراك؟ ألا

طريق إلى عرسنا هذا غير جازة صاحبك؟ تسألني لتبعد  
 انقارقة الجارحة، لماذا كانت تصرّيك وأنت صغير، ميجمر  
 وجهها وتقول كان الشقاء هو السبب أنك هي أمك  
 ببياضها وشعرها الطويل ولسانها الذي يجرح البرد.  
 موسوعة التعاصيل، ورواية المقاربات الطويلة بين الماضي  
 والحاضر. كل ما كان أفضل مما هو الآن، فسياء الأهار  
 أفضل من ماء الحمية. وقاديل الكار أفضل من مصابيح  
 الكهرباء، والرّمس البعيد هو المردوس المنفود. طعّثها  
 النكبة في القلب وحطّتها تبعات الزلزال، فقاومت اليأس  
 بالكبرياء وبطاقة روحية أمدّت جسدها بقوة فرس لا  
 تتعب، أو لا تأدّن للتعب بأن يطلق بالشكوى، بل بهجاء  
 الرّمس الذي نقل أمرتها من مرارعين إلى لاجئين.  
 وبالسخرية اللادعة طوّعت الشقاء على الامتاع من  
 الإهانة كما دُرّبتك على تقديس الكرامة، والاعتماد على  
 النفس في اللعب وفي الدرس وفي كتيّ ثيابك.

أمك هي أمك وأنت ابها حين تكونان معاً. أنا في  
 حصرة الآخرين فإنها تلعب دور الشاهد. تصون مسافة  
 تُقيّد صيماً خاصاً على أومتها، وشخصاً عاماً لا تدافع  
 عن حقّها في امتلاكه. كأنها تهمس وتهمس لنفسها: أنا  
 ولدتُ في البداية. لكن هو من واصل الولادة. وهي هي،



المحمدة على شيوخونها في كل شيء لا تأذن لأحد من أبنائها وبناتها وحفيداتها وأحفادها بأن يهرح بمساعدتها. تصحو عند العجر . تصلي، تُعدُّ قهوتها، تعمل بيوتها. تستقي ورودها في الباحة الصغيرة، تُنظفُ الهواء من العبار، وتمسح العبار عن مكتبك القديمة، ثم تصل ثيابها وتطهو طعامها، وتنتظر ضيوفها. وإذا شككت، فإنها تشكو من قلة المشغور إلى حكاياتها. أَلَسُوا عليها لاقاء جهار تلفريون بِمُسلِّبها، فأبئت لأنها لا تحصل ثروة المديعات والمديعين ولا ترعى بأن تكون مستمعة، تريد أن تكون هي المديعة.

في صباح ليوم التالي، تشرب معها قهوتها دائعة الصيت، بعدما انتشرت رائحتها في الأعية التي كتبتها قبل أكثر من ثلاثة عقود في سجلك الثاني. تسألها: هل تعجبك الأعية؟ فتبتسم بحياء وتكتفي بالقول: 'الله يرضى عليك وتذكرك بأن عليك أن تذهب الآن، قبل أن يأتي الصيوف، لزيارة قبر أهلك. تنظر إلى صورته المعلقة أمامك على الجدار. تحمي حسرتك وأمالك على أبواب الصبر الذي نقلته السكبة من اليسر إلى العسر، وقصى العمر يبحث لك ولأخوتك عن خير وكتاب في الصراع المصي مع الصخر لم يُطل التحديق، كأبيه، إلى ماضيه السعيد

اخذق إليه من كروم الزيتون وحقول الحطة كيلا يلتقي  
 المملوب بالمشهور وتحتل عبء المحاصر، كما هو،  
 كملك مخلوع لا يقوى على النظر إلى عرشه، يأخذك  
 إلى العد لعد أمامك يا ابي، فلا تنظر إلى الوراء كثيراً  
 إلا عندما يشتد عودك وقصيدك. وعندما اشتد عودك صار  
 يبدو لك أنك أبو أيك، ويبدو لك أن للشعر قدرة على  
 إجراء تعديل ما في المصائر، فزحخت نبي يوثاً خيالية من  
 حطامك ومن أسماء اليات والجماد، ليفف المكان مكانه  
 ونعود الحياة إلى ما يشبه الحياة!

وأبوك هو أبوك. كما جلست إليه تكئمتما على عجل  
 فهو لا يكشف عن جرحه أمام ابيه. وأنت لا تعرف  
 كيف تحمي عن قسوة الشفقة عليه، فورثت عنه الجرح.  
 وفي صيف بعيد، على سطح بيت طيني بعيد، تشرح  
 صوت أبيك وهو يقول لكم. لم أعد قادراً على تعليمكم،  
 أنتم الثلاثة معاً لقد تعبت على واحد منكم أن يتطوع  
 بترك المدرسة ليبحثي، لم يعد ظهري قادراً على حمل  
 الصخرة وحدي. فتبارتم في الشهامة. كل واحد قال.  
 أنا. فسالت دمة أبيك على مرأى منكم، وبكيتتم معه  
 وعليه وفجأة قال. لا. لا أحد دخل القصر في الحاق

تلك الليلة، واحتضن كل واحد منكم حلمه الصغر بنوذة  
ونام.

على قبر أبوك، السقم في حصى أبيه، قرأت العاتمة.  
وقلت: جاء الآن دوري. مات أبوك بصرية شمس أثناء  
نأدته مريضة الحج. وأنت نهى الآن نفسك للموت بعد  
الحج إلى قبر أبيك. لا بصرية شمس تموت، والفصل  
ربيع، بل بصرية قمر

يقع الخيال من أعلى، يتدحرج كحبة كستناء على الشارع  
انفصي إلى عكا، ويختفي في رحام السيارات. الخيال  
انبثاق الصورة عمودياً من لحظة حبلى بمعلوم يسيرة  
اللاوعي إلى مجهول. الخيال قرين الكائن السرّي ومعيته  
على تصحيح أخطاء طباعية في كتاب الكون هو عين  
البصيرة التي ترى ولا ترى، فإذا رأها خارج أفعاله علما  
أنه مريض وإذا مرض الخيال مات الشعر. ألهدا أنت  
خائف من عكا التي نعتها بأنها دقلم المدد الجميلة /  
أجمل المدن القديمة؟ عكا معاصرة صياحك الأولى،  
وبحرك الأول هي هي، لكن الخيال يتسقط عن جدرانها  
كما يتساقط الكلس وأنت تمشي خالياً من عمل الخيال  
في دهاليزها المعتمة، كما تمشي على نفسك. أمام البحر

ها باب يعصي إلى سجلك الأول. وعلى هذا الكوريش  
تأملت غروب الشمس، وأكوار النور الصعراء في أيدي  
فتيات ينهادين ويروين حكايات صغيرة، تمثّلت لو  
انلمستَ فيها وكانت لك حكاية بهن، أو لو كنت  
أنت الحكاية!

وفي حيفا، تماشيت اختبار الخيال في العرفة التي دربك  
فيها الخيال على طريقة الخروج من ذاتك، واكتفيت بإلقاء  
نظرة الطائر على رهشة علقت بشجرة البارخ.

سقط الخيال عن الشجرة! فهل لك أن ترفعه قليلاً  
قليلاً إلى أعلى!

وقلت: ولو لم تكن الأرض كروية لواصلت المسيرة!

مُتَجَنِّبِي أُمَامِي بِلَا صَحِيحٍ، هَادِثًا هَادِثًا، وَلَا رَأْيَ لَكَ فِي  
مَا حَوْلَكَ. فَوْقًا سَمَاءٍ مُحَامِدَةٍ، وَحَوْلًا جِهَاتٍ نَعْرَفُ  
بِأَنْوَاعِ أَشْجَارِهَا:

الْشَرْقُ نَحْلَةً عَاقِرًا،

الْعَرَبُ أَكَاكِيَتُوسَ لَطَرْدِ الْبَحْرِيِّ،

الشِّمَالُ صَعْبَاقَةً فِي مَلْتَقَى رَمِيْنِ،

وَالْجَنُوبُ رَيْتُونَةً...

وَأَنْ أَتْلُو عَلَى مَسَامِعِ الْمَكَانِ الْإِلَهِِيِّ عَمَكَ وَعَمِي مَقَاطِعِ

من خطبتك عليك، خطبتك التي شئت أن تكون طويلة  
الظلال، لا شيء بل لأن العراع المحيط بها قد يحتاج  
إلى ما يسليه ولا أحد معاً، لا أحد يهدأ بالمقاطعة من  
فرط الصبر، لا أحد يبهي إلى أن الرناء مديح تأخر عن  
مواعده حياة كاملة.

وأنت تستحي أمامي كمكرة تمنح صبر صاحبها على  
احتمالها، وكقصيدة تصحي إلى شاعرها ونحتر سلامه  
الصبر والبصيرة، فنقول: صدقت أو كذبت علي!

قلت لي: أوصيك بك، فقد حاشني الكثيرون من أحببت  
.. وخائوني كالعنبره. وحسنوني على جرحي البليغ،  
لأنه عثر على ما يشبه الوصف البليغ لسطوة الغياب  
الحاصر في كلامي. لذلك أعفيتهم من حزج النفاق، على  
تبذير القلوب الحاسر إن كانت ثقيلة، وأعفيتهم من دموع  
تذرف رائحة الفلفل

وقلت لي: لا حاجة بي إلى الاعتراف، فلا سر لي.  
ومصيحتي هي اللاس، مد سبق قلبي لسانني أحب  
الشيء وأقلب عليه لئلا يستعبدني. ولا أكره إلا الكراهية  
لأنها شتم في الطاقة المدورة لحب أشياء بسيطة. لذا

أشعقت على الكارهين من إدمان السير على ظل ظنوه  
خطاهم، وسجوا حياتهم في ابتكار وحيد: أخطائي!

وقلت لي: لم أختلف مع امرأة إلا على تعريف الحب.  
وقلت لي: ما يُعرف يُعرف، وما يُعرف يُنتك، وما يُنتك  
يُنتك ويُسْتَهْلِك ويَهْلِك.

وقلت لي: ليس الحب سعادة ولا شفاء، بل هو عثور  
الحواس على اختلاف الشبه والتلافه في رعية تتجدد. ولو  
عرفنا من يُحبنا أكثر من معرفتنا من نحب... لَهَلَّ الحب  
ملتبساً كما هو دائماً، وظلت السعادة لعبة نرد، وكان  
على المتكلم أن يستعير عاطفة الغائب... لو عرف من  
يحبنا قبل أن نعرف من نحب!

وقلت لي: إذا مت قبلك، فادراً عني الكلمات المغلقة  
التي انقصت مدة صلاحيتها مد وقف خطيب على صبر،  
وادراً الأرض التي أمام قريها لعل عشية تدلُّك عني أن  
الموت ملاحه من نوع آخر

فماذا أقول لك، يا صاحبي، في حصرة هذا العياب  
الصامع، وقد أملت عني خطبة وداع متقطعة الرم،

خالية من الشجر، محكمة العوصى، ولا دمة فيها خوفاً  
على الكلام من الليل،

أجل .. أجل، لا وصية لك إلا السهي عن الإفراط في  
التأويل أعدوك كثير، مرثيون وسرثيون. وقلت لي لا  
تحش إلا الذين لا يعرفون الملل. أما الأحتة، فهم هناك  
مسهكون في النقاط ما تقدمه الحياة من هيات صغيرة  
وتبرعات... كتحة من رهرة عشوائية الصحك، وشبه  
فتاة إلى كثر يسمو، رويداً رويداً، في أحد أقاليم الجسد،  
سعداء لأن أحدهم من أمائهم لم يمت اليوم، ولأن زلزالاً لم  
يصر بغيهم المنصوبة على سفع هاربة. ويصجرون من  
الأمل كما يصجر المرء من عشاء متكرر، لكنهم يعودون  
إلى العشاء، وإلى الأمل.

ماحضر - قلت لي - من لا يعرفون الملل ويعرطون في  
التأويل. ففي وسعهم أن يشرّحوها الوردة بحثاً عن لتمشخ  
في مصير الرائحة، وأن يشرّحوها للماشق أن القبلية هي  
تبادل أوبشة. وفي وسعهم أن يحاكموك على استعارة  
شعرية وعلى حرية خيال، لأن الجمال يهيبهم، ولأن  
الشعر الوطني الصحيح هو القبيح، ولأن غيابك هذا قد  
يحرمهم من أسباب الحياة!



وقلت لي: أعدائي كثير، فلا تحبني كي لا يردادوا

ما عليك، ما عليك. هنا حيث لا أعرف قبرك من مسقط رأسي، لا يحاكم أحد أحدًا، ولا يقودنا هودج الكلمات إلى واقع أو خيال. هنا يصفي الحساب مع القلب، ويعول للعكر. ابتعد، فقد كانت للموتى حياة ما قبل هذا الموت. حياة أقل من حياة، وأكثر من ريادة عارة. هنا ينظر القلب إلى أعلى، فينجلى دم تحلف عن مواعده، دم على ما لم يفعل. لماذا لم يأخذ الحياة على محمل الجد؟ لماذا أسرعنا إلى هذا الحد، ما دامت النهاية هي الواضحة والبدئية هي الغامضة.

وقلت لي: لم يعطنا صاحب البحث عن الحياة، في الحياة، فرصة الامتثال الكامل لهدى السليقة، وقلنا إن الشعر هو الشاعر. وكان علينا أن نصدق الشعر ونكذب الشاعر. فهل لي أن أقرأك من جديد لأدرك كيف تسوس المهارة ربح العبارة، لتجمل من كل شجرة أنثى، ومن كل أنثى شجرة، فنكذب على الأنثى وعلى الشجرة معاً؟ أبعير هذا بصدق الشعر؟

وقلت لي: إن تطابق الصورة مع الواقع خير يدفع الخيال

إلى الحياد. فلتكذب صورة الشيء على الشيء ليرى ما  
بعد الشيء، ليرى في صوء الرؤيا ما يجتبا العدم.

فبأي قلب من قلوبى الكثيرة أناديك. انتظري مهما  
تأخرت. أما عشت بدلاً عسي، كما مات أحد الموتى بدلاً  
مسي دون أن أقول له: شكراً فما أنا إلا هو دون أن أراه،  
أنا المدين بمصادفة بادرة العيش، في شارع لو أسرع  
قليلاً أو أبطأت قليلاً لمت بياهة عن سواي، وعاش حياتي  
بياهة عسي؟ فما هو إلا أنا دون أن يراني. هو المدين  
بمصادفة بادرة العيش. كم قلنا إن علينا أن نكمل حياة  
الآخرين فيها، لا كما سربلها نحن فحسب، بل كما  
أرادها أصحابها الذين يعيش بدلاً منهم

وقلت لي: كُفّي، ولا تحثني إلا بقدر ما يفصيك الإيقاع  
عسي، وترجعك قافية ضرورة التكرار إلي

وقلت لي: لا تفكر بالخلود، فما هو إلا أحد الآثار السلبية  
أو الإيجابية لحادثة الوجود، وخوف الروح، لحظة اعتاقها  
من جسد عرفته وألقته على مكسي لا عهد لها بها، أو  
عودتها إلى من استعرت منه الحياة حين مات بياهة عسي.

وأنت مُستجنى أمامي، لا أعرف من هو الميت إليك ومن

هو الخبيث، إلا بقدر ما تعلمي عليّ من خطبة أرذثها طويلة  
لتدريب الروح على اختيار حريتها أو عبوديتها في ما يتح  
بها من كائنات ومن كلمات فإن كُنْتُ أُنْتُ الغائل ما  
أقول لك الآن في صمتك هذا، فليس يكون الموت أكثر  
من وسيلة لاهتداء الروح إلى ما أُعِدَّ لها من سفر. وإن  
كُنْتُ أُنْتُ الغائل ما أقول لك الآن، على هذا الحجر، فإني  
دريئة الموت القصوى لتعريف الحياة بضدها العاصم،  
ضدها العاجز عن تعريفها بضدها في مكان، في لا مكان  
آخر، أطلق الخائفون من العدم عليه لقب الخلود.

فم هادئاً هادئاً إذا ما استطعت إلى ذلك سبيلاً /

وتم هادئاً في كلامك

وأحلم بأنك تخلفي

ثم هادئاً ما استطعت

سأطرد عنك الجحوش

ودمع التماسيح

والأصدقاء الذين أحبوا جروحك

واصبروا عليك حين جعلت

صليتك طاولة للكتابة

تَمَّ هادئاً قرب نفسك

تَمَّ هادئاً،

سوف أحرسُ حُلُمَكَ،

وحدي ووحده في هذه الساعة

الأرضُ عاليةٌ

كالطواطمِ عاليةٌ

والسماءُ مجازيةٌ كالقصيدةِ

ورقاً، خضراءُ، يضاءُ،

يضاءُ يضاءُ يضاءُ

منظراً منظراً، أنترك أمامي بكفاءة لم أوتها إلا في المطالع.  
وأطيل خطبتي كشاهراً يحتفظ بالمقطع الأخير، ليطلع  
التأمل في ما مضى من هواياته /

هواياته هي عدد الدرجات التي يراها أمامه، وانسني على  
شارع جانبي وجمع الأصداف ... ومؤانسة الكسل /

أكتسل جتهلاً ومهارة إفراغ القلب عما يريد عن حاجته  
إلى الخفاد، وتمييز بين الوقت والزمن. فمن يملك وقتاً  
أكثر يتحرر من خشية الزمن /

أُرمي نهرٌ سلبس لم لا يستبه إليه، وحشي شرس من  
يحذف إليه، فتخطعه الهاوية /

الهاوية هي إعواء الأعماق وجاذبية المجهول، إذ تصبح  
السما حرة واسعة كثيفة العيوم /

العيوم تُعطيك، يا صاحبي، بقطنها وتعطبي. في هذا  
المكان الهارب من صفاته إلى ما تُشيل عليه العيوم من  
حقة الشكل ومادة المص /

أنسى أمناً بلوح، من بعيد، بيد سمارية مبتورة الأصابع،  
من شدة الحرارة في أرض غير ذات ريع، ولا سعادة /

السعادة مادة روحية يختلف على تعريفها من يتفقون على  
أن الحظ موهبة، والموهبة حظ، ويختلف على مديحها من  
يملكونها ويدخرونها في صندوق مقفل وما هي إلا رشوة  
من المستحيل /

الاستحيل هو الشئ الطموح، يخرج إلى الشارع شاهراً  
مقتناً لتقليم الأغصان اليابسة والأفكار، وتعليم أحالم  
إدارة النهار على وثيرة ما يرى /

يرى أن رفرفة أجنحة العراشة، في مروحة اللود، هي  
أفضل علاج للألم /

الألم، إذ لا تعكر فيه، لا تحس به. كأنه يُنجّل هدوءك  
هذا أمام غَدَم لا يهدي رأياً منك ولا تبدي رأياً فيه. لا  
تُرى ولا تُرى. هو اللاشيء وقد اكتمل /

واكتمل القَمَرُ على حدودنا في هذا المراع. واكتملت  
ذاكرتي /

ذاكرتي رُثانة هل أفرطها عليك حبة حبة، وأشرها عليك  
دُلُؤاً أحمر يلبق بوداع لا يطلب مني شيئاً غير السيان /

أُلسِيَانُ تدرج الخيال على احترام الواقع بتعالي اللمعة،  
واحتياط الأمل العصامي بصورة ناقصة عن المد /

العدو، وهو هنا أمامنا الآن يا صاحبي، عارٍ من لرمس  
مرمٍ على حفرة، في انتظار ورقة توت مبتاهية تغطي  
منقعة العابر /

أُعبّر من ليل الصوء إلى صوء الليل /

أُذيلُ يهبط علينا وعلينا أن نأبه بشوارع الدين تركونا

ودهبوا إلى ليهم الخاص، يسود أو يتذكرون مقطعا من  
خطبة الوداع /

ألوداع هو الصمت العاصل بين الصوت والصدى أما  
الصوت فقد انكسر. وأما الصدى فقد حَفَظَتْهُ وديان  
وكهوف مُزَظَفَةُ السَّمْعِ كآذان كويته، وصَحْمَتُهُ صدى  
للصدى /

الصدى وصية الرائر للعاير، وفيلة الطائر للطائر، وإلحاح  
المهابة على إطالة الحكاية... الصدى هو نقش الاسم في  
الهواء /

ألهواء بارد، يا صاحبي، بارد ومشمش. ولم يبق أحد  
سواي يُسَلِّيك ويُلَهِّيك عما أنت علي مبتزّي هذا  
العدم. ألقم متران محاطان بهيات يستعد لاستشاق  
الأوكسجين. ألقم مُخَاصِرَ بهواء بارد ومشمش. سأبذر  
ثُذُوزَ يمسح على هذين المترين، وأسكب الماء ليهص  
العدم مهرولا ويمضي بعيدا /

بعيدا، لا شأن لأحلامنا بما نعمل. الريح تحمل الليل  
وتمضي، ولا هدف /



ألهفُ يختلف من درب إلى درب لكن الدروب كثيرة  
ووعرة، والمؤونة من العمر قليلة /

وقليلة هي الأعاني /

الأعاني، حسبها منها امتراق السمع إلى اعتذار الموت من  
بعض الموتى، واختلاس النظر إلى بحوحة النثر /

أشتر جاز الشعر وزُحَّة الشاعر /

أشعر هو الخائر بين النثر والشعر /

والشعر إخفاء الروال عن الرائل، وجملته اعتراضية بين  
العمل والعامل والمفعول به، كأن تقول نَزَحْتُ المَرَاةَ،  
وهي تخفي دموعها، صاحبها. ففي الجملة الاعتراضية بين  
«نَزَحْتُ» و«صاحبها» وقت يكفي كي يدوب ملح  
العصب، وتلأل السجوم /

السجوم تُطلُّ، يا صاحبي، عليا كَلَمَعَانِ أُرَارِ دَهِيَّةَ علي  
معطف الأبدية تُطلُّ عليا من موت بعيد لم يصل إلينا  
بعد. وأنا أتلو عليك خطبتي تدسَّ نَجْمَةٌ في كلامي  
وتصيء عثماني لعل الموت محارز يدكرها بسراً في الحياة  
لم تنتبه إليه، فما هو؟ /

ما هو؟ لو عرفناه لتغيرت مشاربنا، فما لا يعرف موجود،  
وما يعرف محدود يتغير وعلى قبرك هذا بيت عشب  
أقوى منك ومسي، فلا أعرف هل أحزن أم لا أحزن لأن  
الحياة أرملة راقصة لا تكثرت إلا بما ينقصها /

بفضتها مديح الموتى وعتائبهم في أن واحد: لو قلت لنا  
من أنت، وأن هالك موتاً أقسى منك، لأحببتك  
وقدسك، وخفنا من أمتعة الرحلة /

الرحلة خاية /

والغاية إغواء المجهول /

والمجهول بعيد عما وقريب ما... يستدرجنا إلى الامتلاء  
بجهل لا حد له، صجته لثقب جهل آخر لكننا لمعنا  
بالبحث عن معلوم يرشدنا إلى حياة ما في الحياة، فصار  
المعلوم عصياً /

وعصياً كان كل شيء. في ظلك حشد ظلال، فلا تدري  
من يمشي بك ويمك تقاطع طرق ملأى بحطى عراة  
هبطوا عليك كمظليين متزئبين على استخدام معابرثك.  
وفي اسمك أخطاء سيها حريق هائل في المخارطة وعلى

بيتك ثجني آثار رومانية. أما أنت، ملا صورة لك إلا  
الشبح /

شبح يرون الحارس على السهر. شاي وبندقية. فإذا عجب  
المعاش الساهر برد الشاي، وقعت من يده البندقية،  
وتسلل الهدي لأحمر إلى الحكاية /

الحكاية هي أنك هدي أحمر /

أحمر الرمش، لا أحمر الدم، وأنت كابوش الساهر /

الساهر على تمش العياب، وعلى تديك عصلات الأبد /

الأبد ملكية الحارس. عقار واستثمار. وإذا لرم الأمر فهو  
جدي مضبط في حرب لا هدنة فيها. ولا يلوح بعدها  
سلام /

سلام عليك يوم ولدت، ويوم تبعث حياً في أوراق  
الشجرة /

الشجرة لعظة شكر خصراء ترفعها الأرض كتجوى إلى  
جارتها السماء /

والسماء تكادها بنقطرات مطر /

مطر عليك وعلى. مطر حميف يعيشا في أول هذا الليل.  
أحصىه قطرة قطرة كما أحصى دقائق القلب الطاميء إلى  
بلل، فأطيل وقومي وأطيل خطبتي، نعدك تبهر وتعود  
معي إلى أي أم، أو أمصي معك إلى لا أين، كما لو  
تؤدي بي أين تنظر الوحي /

ألوحى برهان القلب على ما لا يعرف، على ما هو أعلى /

أعلى وأبعد. وأرى طائرة يحملني ويحملك، وبحس  
جساده، إلى ما وراء الرؤيا، في رحلة لا نهاية لها ولا  
هداية، لا قصد ولا غاية. لا أحدثك ولا تحدثني. ولا  
سمع إلا موسيقى الصمت /

الصمت اطمئنان الصاحب للصاحب. وثقة الخيان بنفسه  
من مطر وقوس قزح /

قوس قزح هو تحوش الوحي بالشاعر، بلا استعدان ...  
والشاعر بشر القرآن /

هياي آلاء ربكما تكليان /

وَعَثَّيَانُ أَنَا وَأَنْتَ، وَحَاصِرَانِ أَنَا وَأَنْتَ،

وَعَثَّيَانِ /

مَبَايَ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ.

## صدر للشاعر

---

- أوداع الزمان
- عاشق من فلسطين
- آخر الليل
- حسبي تنهض من نومها
- العصافير تجوز في الليل
- أحبك، أو لا أحبك
- محاولة رقم ٧
- تلت عبورتها، وهذا انتحار العاشق
- أغرام
- مديح الظل العالي
- حصار المذاتج البحر
- هي أغنية، هي أغنية
- ورد أقل

- مأساة الترحس، ملهارة الفضة
- أرى ما أريد
- أحد عشر كوكبة
- دهبان محمود درويش (جزء ١)

وعن

## «رياض الرئيس للكتب والنشر»

لماذا تركت الحصان وحيداً

الطبعة الأولى كانون الثاني/ يناير ١٩٩٥

الطبعة الثانية أيلول/ سبتمبر ١٩٩٥

الطبعة الثالثة شباط/ فبراير ٢٠٠١

سرور الغريبة

الطبعة الأولى كانون الثاني/ يناير ١٩٩٥

الطبعة الثانية شباط/ فبراير ٢٠٠٠

جدارية

الطبعة الأولى حزيران/ يونيو ٢٠٠٠

الطبعة الثانية شباط/ فبراير ٢٠٠١

حالة حصار

الطبعة الأولى نيسان/ أبريل ٢٠٠٢

الطبعة الثانية حزيران/ يونيو ٢٠٠٢



لا تحذر عما فعلت

الطبعة الأولى: كانون الثاني/يناير ٢٠٠٤

الطبعة الثانية: شباط/فبراير ٢٠٠٤

الأعمال الجديدة

الطبعة الأولى: كانون الثاني/يناير ٢٠٠٤

كزهر اللوز أو أبعد

الطبعة الأولى: أيلول/سبتمبر ٢٠٠٥

الطبعة الثانية: تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٥

الدوان: الأعمال الأولى (٣ أجزاء)

الطبعة الأولى: حزيران/يونيو ٢٠٠٥

# محمود درويش في حضرة الغياب

ملك عرفت من آثار الكتابة المدعرة ما  
سينقلنا إلى ترقية الصف الثاني من  
الظلال. كان هؤلاء صوف واحد، متفانية  
الضلال، لا تكفي لعقد صداقة مع  
الذات. صلتهم من المدح في الرواية،  
وتكبر من هذا إلى أن عالم متفاني  
مكتوب يحير على ذلك. أما الأمازي، فإن  
لنصنعها الأمازي واليهو الجيران. وأما  
الأحلام فإن نجد متفاني لها في بيت  
طائر، مدين على حول كائن دجاج. ويحير  
فيه سبعة عالمين. لا أحد منهم يتكلم  
الأخر باسمه منذ صار الاسم رقماً. 1982م  
إثبات يابسة تتركها في الحضرة  
القصور، كأن يفسر قلبك من سوء  
الضلال، فتدأوي ويزد السمك. هذه  
العالم المتفاني لمن أخرجوا من مفارهم  
لشبهه مكرهاً كذا كذا الأمازي على إلقاء  
سوته في أماء الرضا.

(من 1982م)

